الصليب وكلمات المصلوب

يوسف رياض

٢٠٠٠

محتويات الكتاب

تقديم ٧

مقدمة ٩

العبارة الأولى: **كلمات الغفران**

يَا أَبَتَاهُ، اغْفِرْ لَهُمْ لأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ مَاذَا يَفْعَلُونَ ١٥

العبارة الثانية: **كلمات الترفُّق**

يَا امْرَأَةُ، هُوَذَا ابْنُكِ... هُوَذَا أُمُّكَ. ٣٣

العبارة الثالثة: **كلمات التعزية**

الْحَقَّ أَقُولُ لَكَ: إِنَّكَ الْيَوْمَ تَكُونُ مَعِي فِي الْفِرْدَوْسِ ٥١

العبارة الرابعة: **كلمات الهجر**

إِيلِي، إِيلِي، لَمَا شَبَقْتَنِي؟ إِلَهِي، إِلَهِي، لِمَاذَا تَرَكْتَنِي؟ ٧٥

العبارة الخامسة: **كلمة الألم**

أَنَا عَطْشَانُ. ٩٩

العبارة السادسة: **كلمة الانتصار**

قد أُكْمِلَ ١٢١

العبارة السابعة: **كلمات التسليم**

يَا أَبَتَاهُ، فِي يَدَيْكَ أَسْتَوْدِعُ رُوحِي ١٤٥

تقديم

كلمات الرب من فوق الصليب موضوع شيق، يجد فيه كل دارس للكلمة المكتوبة، وكل محب للكلمة المتجسد، مادة دسمة وشهية. ولقد سبق لي مرات عديدة أن سعدت وأنا أدرس هذا الموضوع العظيم. فقدمت مرات دراسات وعظية فيه في العديد من الاجتماعات الخاصة. بعد ذلك قدّمت الموضوع ذاته كمادة إذاعية مسلسلة في إذاعة "حول العالم"، ثم بعد ذلك قدمته في موضوعات مسلسلة ظهرت في مجلة "النعمة والحق" في الفترة من عام ١٩٩٧ حتى عام٢٠٠٠. وكنت كلما أدرس هذا الموضوع أجد المزيد المعزي لأضيفه إلى المادة التي قُدمت في المرة الأسبق. وها أنا أخيراً أقدمه الآن في صورة كتاب بعنوان "الصليب وكلمات المصلوب"، راجياً أن يستخدمه الرب لبركة القارئ العربي في كل مكان ولفائدته، ولخير جميع الذين يحبون المسيح ويفهمون مدلول عمله الفدائي لأجلهم من فوق الصليب.

يوسف رياض

مقدمة

من فوق الصليب، وفي خلال الساعات الرهيبة التي قضاها المسيح وهو معلـق عليـه، نطق - له المجد - بسبع عبارات غالية وثمينة جداً. وهي عبارات لم يُسمع على مدى التاريخ أروع منها، كل واحدة منها تحتوي على محيط زاخر من المعاني.

والكلمات الأخيرة في حياة كل إنسان يكون لها عادة مدلول كبير وقيمة فريـدة. فهكـذا كانت كلمات يعقوب الأخيرة (تك٤٩)، وكلمات موسى الأخيرة (تث٣٢؛٣٣)، وكلمات يشـوع الأخيرة (يش٢٤)، وكلمات داود الأخيرة (٢صم٢٣). لكننا في هذا الكتاب سـندرس كلمـات المسيح الأخيرة، ليس تلك التي قالها في حياته، بل التي قالها من فوق الصليب.

لقد تكلم أناس عاشوا على الأرض، قبل المسيح وبعده، بكلمات طيبة وصادقة. لكن بكـل تأكيد لم يتكلم إنسان قط بمثل ما تكلم المسيح. كما أن المسيح لم يتكلم قط بأروع مما تكلم بـه من فوق الصليب ولا بأعمق.

العبارات الثلاث الأولى كانت أثناء ثلاث ساعات الصلب الأولى، أي من التاسعة صـباحاً حتى الثانية عشر ظهراً بتوقيتنا الحاضر. ثم حدثت الظلمة المعجزية مـدّة ثـلاث سـاعات. وخلال ساعات الظلمة لم يُسمع صوت أحد من البشر، وفيها لم ينطق المسيح بكلمة واحدة على الإطلاق، إذ كان مشغولاً بأعظم عمل، ومحارباً في أعظم معركة. ثم بعـد سـاعات الظلمـة الثلاث نطق الرب بالعبارات الأربع الأخيرة في تتابع سريع، وأسلم الروح.

ولقد كانت الثلاث العبارات الأولى خاصة بالبشر المحيطين بالصليب، قالها المسيح عنهم أو إليهم، أما العبارات الأربع الأخيرة فإنها كانت خاصة بشخصه الكريم.

* * * *

إننا أحياناً عندما نقرأ فصولاً معينة في الكتاب المقدس، يملأنا الشعور بنعمة الله الفيّاضة، فنحس بإحساس الابن الراجع من الكورة البعيدة عندما جعلوا الحذاء في رجليه، واقتادوه ليدخل البيت مُرَّحَباً به. ولكننا أمام مشاهد وفصول أخرى، يكون الشعور الطاغي ليس بتلك النعمـة العجيبة، بل بالقداسة المطلقة، وعندئذ فإننا بدل أن نفرح بالحذاء في أرجلنا نبـادر بخلعـه، إذ

يدوي في أسماعنا الصوت الذي سمعه موسى قديماً: «لا تقترب إلى ههنا... لأن الموضع الذي أنت واقف عليه أرض مقدّسة» (خر٣:٥). وقطعاً لا توجد بقعة مقدسة في كـل الكـون، ولا مشاهد مقدسة في كل الوحي، نظير بقعة الجلجثة والحوادث التي دارت هناك عندما رُفع المسيح فوق الصليب ليموت بدل الخطاة!

* * * *

هذه العبارات السبع هي بمثابة طاقات نتطلع من خلالها إلى ما كان يدور في ذهن مسيح الله خلال ساعات الصليب. ومع أنها كلمات مقتضبة فهي محملة بالمعاني، زاخرة بالدلالات.

قال واحد: "كما كان يجب ألا يُكسر عظم من عظام المصلوب، هكذا فإن كلمة واحدة من كلمات المصلوب لا ينبغي أن تضيع".

كانت كلمات الرب بترتيبها* الذي نطق به:

العبـــارة الأولى : وهي صلاة وجهها للآب من أجل الأعداء الذين كانوا قد فرغوا لتوهم مـن صلبه:

«يا أبتاه اغفر لهم لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون».

هنا نجد غفران الخطايا المجاني للأعداء.

العبـــارة الثانيـــة : قالها لأمه مريم، وكذلك لتلميذه يوحنا، مستودعاً إياها لعنايته:

«يا امرأة هوذا ابنك. ثم قال ليوحنا هوذا أمك».

هنا نرى الإنسان الكامل مهتماً بأمه.

العبـــارة الثالثـــة : قالها للّص التائب مرحباً به في الفردوس:

«الحق أقول لك إنك اليوم تكون معي في الفردوس».

هنا نرى خلاص الله العجيب الذي يعطي المؤمن الأمان في سـاعة انطلاقـه

---

* لا يمكن الجزم بصورة مطلقة بترتيب كلمات المسيح من فوق الصليب، سيما وأنها لم تَرِد كلهـا مجتمعة في أي إنجيل، لكن بمقارنة المكتوب بالمكتوب يمكننا استنتاج الترتيب المقترح عاليه.

وموته.

العبارة الرابعة : قالها من عمق الظلمة موجها إياها لله بسبب تركه له:

«إلهي إلهي لماذا تركتني».

هنا نرى الذبيحة الكفارية والآلام التي احتملها.

العبارة الخامسة : موجهاً إياها لكل من له أذن، معبراً فيها عن آلامه الجسدية:

«أنا عطشان».

في هذه العبارة نرى صدق كلمة الله، وعدم سقوط كلمة واحدة منها، وحرص المسيح على إتمامها.

العبارة السادسة : موجها إياها لكل من يعنيه الأمر، معبراً عن إكماله عمل الفداء:

«قد أُكمِل».

وفيها نرى كمال العمل العظيم الذي قام به المسيح.

العبارة السابعة : موجها إياها لأبيه، مستودعاً روحه بين يديه:

«يا أبتاه في يديك استودع روحي».

هنا نرى الأمان والثقة من جانب المتألم البار في ساعة موته.

وبكلمات أخرى فإننا

في **العبارة الأولى** : نرى **الوسيط متوسلاً**

في **العبارة الثانية** : نرى **الكمال مترفقاً**

في **العبارة الثالثة** : نرى **الملك مرحِّباً**

في **العبارة الرابعة** : نرى **الذبيح متألماً**

في **العبارة الخامسـة** : نرى **الشـــهيد معـــذَّباً**

في **العبارة السادسـة** : نرى **المخلِّـــص مكمَّـــلاً**

في **العبـارة السـابعة** : نرى **الإنســـان مســـلِّماً**

سبع عبارات، والرقم "سبعة" في كل الكتاب المقدس من أوله إلى آخره، هو رقم الكمـال. والآن إذ نتأمل في عبارات المسيح السبع من فوق الصليب فإننا نتأمل في الكمال بعينه.

نعم إن هذه العبارات تتلألأ بأروع مما تتلألأ به المنائر السبع الذهبية، وتشع من الضـياء أعظم مما تشع به الكواكب السبعة في سفر الرؤيا. ولكَم اهتدى بهديها الملايين! ولكم شهدت لسمو قائلها، وسمو عمله في آن معاً!

العبارة الأولى من فوق الصليب

كلمات الغفران

ولما مضوا به إلى الموضع الذي يُدعى جمجمة صلبوه هناك مع المذنبين، واحداً عن يمينه والآخر عن يساره. فقال يسوع:

يَا أَبَتَاهُ، اغْفِرْ لَهُمْ
لأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ مَاذَا يَفْعَلُونَ

(لو٢٣: ٣٣، ٣٤)

الكلمة الأولى: صلاة!

الشيء اللافت أن أولى عبارات المسيح المجيدة من فوق الصليب كانت صلاة لله.

يا له من شخص عجيب ليس له نظير! فها إن يديه لم تعودا تعملان الخير كما عملتا كثيراً، إذ سمرهما البشر على الصليب، ورجليه لم تعودا تحملانه إلى البؤساء والمساكين ليخدمهم، لأنهما مسمرتان كذلك على الصليب، وشفتيه لم تعودا تنطقان بكلمات الوعظ والتعليم لتلاميذه كعادتهما، لأن تلاميذه كلهم تركوه وهربوا. فبأي شيء ينشغل ذلك الشخص العجيب، في ذلك الوقت العصيب؟ إنه ينشغل بالصلاة لأبيه!

كان آخر عمل عمله - تبارك اسمه - قبل القبض عليه في بستان جثسيماني هو الصلاة لأبيه. وبعدها اقتيد للمحاكمة، حيث حُكِمَ عليه جوراً، وعُذب ظلماً، لكنه في كل مراحل المحاكمة ظَلّ صامتاً، لم يدافع عن نفسه قط. ولم ينطق بشيء إلا لكي يشهد للحق. وعندما عُذب تحمل غُصص الألم صامتاً دون أن يتأوه، إذ كان «كشاةٍ تُساق إلى الذبح، وكنعجة صامتة أمام جازّيها فلم يفتح فاه» (إش٥٣: ٧). لكن ذاك الذي ظل أمام البشر صامتاً لا يفتح فاه، ها هو يتجه إلى أبيه في صلاة. فما أروعه!

لقد كانت عادة الصلاة بالنسبة لربنا يسوع المسيح أقوى من أن توقفها جرعات الألم مهما اشتدت. وفي إنجيل لوقا بالذات، حيث ورد هذا النُطق للرب يسوع، وهو الإنجيل الذي يقدمه لنا باعتباره الإنسان الكامل، نجد المسيح مصلّياً سبع مرات*. ومن العبارات السبع على الصليب اختُص لوقا بِذِكر ثلاث، وكانت منها العبارتان الأولى والأخيرة من هذه العبارات

* انظر لو٣: ٢١؛ ٥: ١٦؛ ٦: ١٢؛ ٩: ١٨،٢٩؛ ١١: ١؛ ٢٢: ٤١.

السبع، وهما صلاتان لأبيه أيضاً.

هذا هو الإنسان الفريد الكامل، رجل الصلاة. لكن توقيت صلاته هذه المرة يُضفي على صلاته جمالاً خاصاً، وعلى شخصه مجداً فريداً. فهو الآن في آخر لحظاته، وتتم فيه كلمات إشعياء النبي في الأصحاح ٥٣ «لأن حياته تُنتَزع من الأرض» (أع٨:٣٣)، ومع ذلك نراه مصلياً!

في مزمور ١٠٩ ترد عنه هذه الكلمات «انفتح على فم الشرير... بكلام بُغضٍ أحاطوا بي، وقاتلوني بلا سبب. بدل محبتي يخاصمونني. أما أنا فصلاة» (١٠٩:٢-٤). إنه لا يقول أما أنا فأصلي، بل «أما أنا فصلاة».

هذا هو القدوس الفريد الذي غُمِر تماماً بعادة الصلاة، عاش فيها وعاشت فيه، فأصبحت من مكونات حياته الإنسانية الفريدة، حتى إنه حالما فرغ الجند القساة القلب من عملية الصليب، فبدلاً من أن يتأوه ويئن ويصرخ، تحول إلى الله بالصلاة قائلاً: يا أبتاه.

لقد شبّه أحدهم شخصه بصُرة المُر التي تظل تبعث عِطرها بلا توقف، ومهما كانت الظروف. ويا له من درس هام لكل مؤمن! فهناك أشخاص تبعدهم قسوة الألم عن عرش النعمة، وتحرمهم مرارة التجارب التمتع بقلب الله. أما المسيح فما كان أشد آلامه، ومع ذلك تحوّل - أول ما تحوّل - إلى الله بالصلاة.

رئيس الإيمان ومكمِّله

كانت أول كلمة ينطق بها المسيح بعد صلبه هي «يا أبتاه». ويا لها من كلمة تعبر عن شركة وثيقة عميقة مع الله! شركة مستمرة هادئة، برهنت على أن إيمان ذلك القدوس بالله لم يتزعزع إطلاقاً رغم الآلام التي كان قد جاز فيها، ورغم الآلام التي كانت ستغمره وهو مُعلق فوق الصليب.

لقد كسرت الآلام قلبه، لكنها لم تؤثر في شركته مع أبيه. ومع أنه كان مُحاطاً بالمهانة والظلام، فإن هذا لم يَحُلْ دون ثقته ببنوّته للآب، وبمحبة الآب له «فقال يسوع: يا أبتاه». وكأنه في كل هذا يردد ما كان قد قاله في مرة سابقة «نعم أيها الآب، لأن هكذا صارت المسرة أمامك» (مت١١:٢٦).

وكما قلت: هو درس لكل المؤمنين. فعندما تضيق بنا الحياة بعد سعةٍ، وتهوى بنا الآمال من عليائها، فماذا نفعل؟ أتخور عزائمنا أو يضعف إيماننا؟ أنخطئ بألسنتنا وننسب لله جهالة؟ أم ننطح برؤوسنا المشيئة الإلهية؟! هناك أشخاص عظام عندما ضغط الألم عليهم، أصاب اليأس والقنوط منهم مقتلاً فلعنوا اليوم الذي وُلدوا فيه، وسبّوا يومهم*. أما ذاك المبارك الفريد، رئيس الإيمان ومكمله، الذي تألم كما لم يتألم سواه، فعندما اسودّت أمامه صفحة الحياة رفع رأسه، وكانت أول عبارة تخرج من فمه هي «يا أبتاه».

علّق أحدهم على ذلك بالقول: "لو قُدر ليد الخالق العظيم أن تتخلى عن دفة الكون، فتنساق مصائر البشرية إلى بحر عجاج مُزبد بالتشويش والفوضى، لكان ذلك عندما سيق ذاك الذي هو تجسيد الجمال الأدبي ليموت كما يموت سفيهٌ أو أثيم". لكن المسيح في ذلك الوقت عينه، وقد أحاط به أعداؤه المسعورون، وأحدق به من كل جانب الحاقدون، تحوّل عن هذا كله إلى الآب، مخاطباً إياه بالتعبير الذي يدل على الثقة والمحبة. وفي هذا أبلغ الدروس وأسماها لأولاد الله، ألا يفشلوا ولا ييأسوا. قد يتلبّد في الأفق سحاب أسود كثيف، ويبدو وكأن الجو قاتم ومخيف. لا ترتَعْ من الأمر، ولا تفقد الإيمان، فإن الله حي يتبوأ عرشه، والرب في العُلى أقدر (مز٩٣: ٤).

صلاة لأجل الأعداء

لكن دعنا الآن نتحول إلى فكرة أخرى. نعم، شيء رائع أن المسيح في آخر لحظة يصلي، وفي ظروف كهذه يصلي لأبيه. لكن لأجل مَنْ صلّى المسيح؟ إنه لم يصل لأجل نفسه بل لأجل الآخرين، وليس لأجل الآخرين فقط، بل لأجل الأعداء، الأعداء الذين رفضوه من البداية، وأرادوا التخلص منه بأي ثمن، والذين لم يكن يشفي غليلهم مجرد موته فقط، بل موته مصلوباً. وها هم قد مضوا به إلى الموضع الذي يُدعى جمجمة†، ونفّذت أياديهم الآثمة

---

* قارن أي٣: ١؛ إر ٢٠: ١٥.

† إن موضع الجمجمة له هنا دلالة هامة، وهي أن الخطية جعلت الإنسان بلا عقل «أما الرجل ففارغ عديم الفهم، وكجحش الفرا يُولَد الإنسان» (أي١١: ١٢). فهؤلاء الأشرار أثبتوا في كراهيتهم للمسيح ليس فقط أنهم بلا قلب، بل أيضاً بلا عقل.

ما أرادت قلوبهم الأشد إثماً. فعندما يصلي لأجلهم المسيح، تُرى ماذا يقول؟ إنه يقـول: «يـا أبتاه، **اغفر لهم**»!!

إننا عندما نتأمل في المعاملة القاسية التي عامل بها أولئك الأشرار رب المجد لا نتمالك أنفسنا، ولا نقدر أن نخفي احتقارنا لأولئك الأشقياء الذين داسوا ابن الله، والـذين قبلـوا طواعيـة أن يكونوا آلة في يد إبليس. أولئك القساة الذين لا قلب لهم، ماذا كان موقف المسيح منهم؟ وماذا كان رده تجاه كل ما بدر عنهم؟ لقد قال: «يا أبتاه اغفر لهم».

ما أعجبَ المصلوبَ فـي عُمـقِ الألـمْ والبغضُ فـي الإنسـان يقـذِفُ بـالحممْ
حـينَ طَمَـا المـوجُ بتيـار الغضـبْ والغمرُ نادى الغمـرَ فـي بحـرٍ خِضَـمْ
عجبـاً يُصـلّي إلـى أبيـه ويطلـبُ مِنْ أجل مَنْ صلبوهُ عـن حسـدٍ وظُلْـمْ
مِنْ أجـل مَـنْ أبـدى العـداوةَ سـافِراً بالبصق في الوجهِ الكـريمِ ومَـنْ لَطَـمْ

أما كان بوسع ابن الله أن يجعـل الأرض تفـتح فاها وتبتلع أولئك الأشقياء أحياء؟! لقد كان -تبـارك اسمه- موضع احتقارهم، وعلى أيديهم كان يتجرع من غُصص الألم ما نعجز عن وصفه، ومع ذلك ها هـو يصلي قائلاً «يا أبتاه اغفر لهم»! فيا للنعمة الغـافرة، والمحبة الغامرة! حقاً، مياه كثيرة لم تستطِعْ أن تطفئ المحبة والسيول لم تغمرها. إنها محبـة مـن النـوع الإلهي: الذي يحتمل كل شيء، ويصبر على كل شيء. لقد صدق واحد عندما قال: "لو أننا لا نعرف شيئاً عن المسيح سوى هذه الصلاة الواحدة لرفعته فوق مستوى البشر، فإن سمُوها ونُبلها لا يصدران من إنسان عادى. وصاحبها لا يمكن إلا أن يكون عظيماً، وابـن العلـي يُدعى"!

> لـو أننـا لا نعـرف شـيئاً عـن المسـيح سـوى هـذه الصـلاة الواحـدة لرفعتـه فـوق مسـتوى البشـر، فـإن سمُوَّهـا ونُبلـها لا يصـدران مـن إنسـان عـادى. وصاحبها لا يمكـن إلا أن يكـون عظيماً، وابن العلي يدٌعى

إن أصعب شيء على الطبيعة البشرية هو الغفران. وطبيعتنا تجد في الانتقام من الأعداء ألذ الأطايب، وفي التشفي من المسيئين شفاء من الغيظ. تفكّر في شمشون مثلاً: لقد صلّى هو أيضاً لله

في آخر لحظاته، وصلّى لأجل الأعداء. لكن ما أبعد الفارق بين صلاة شمشون، وصـلاة ربنـا يسوع المسيح. لقد طلب شمشون الانتقام من أعدائه بسبب عينيه، أما المسـيح فطلـب الغفـران لصالبيه!

لكن دعك من شمشون الذي طلب الانتقام من الفلسطينيين أعداء شعبه وأعداء الله، وتفكّر في إرميا النبي الباكي رقيق القلب واسمع بعضاً من أقواله عن شعبه: «والرب عرفني فعرفت. حينئذ أريتني أفعالهم، وأنا كخروف داجن يُساق إلى الذبح ولم أعلم أنهم فكـروا علـيّ أفكـاراً قائلين: لنهلك الشجرة بثمرها، ونقطعه من أرض الأحياء، فلا يُـذكر بعـد اسـمه. فيـا رب الجنود، القاضي العدل، فاحص الكلى والقلب، دعني أرى انتقامك مـنهم لأنـي لـك كشـفت دعواي» (إر١١:١٨-٢٠)، ثم يقول: «افرزهم كغنم للذبح، وخصصهم ليوم القتـل» (١٢:٣). وفي مناسبة أخرى يقول: «ليخزَ طاردي ولا أخزَ أنا. ليرتعبوا هم ولا أرتعب أنـا. اجلـب عليهم يوم الشر واسحقهم سحقاً مضاعفاً» (١٧:١٨). ومرة أخرى يقول: «اذكر وقوفي أمامك لأتكلم عنهم بالخير لأرد غضبك عنهم. لذلك سلم بنيهم للجوع، وادفعهم ليد السـيف، فتصـير نسائهم ثكالى وأرامل، وتصير رجالهم قتلى الموت، وشبانهم مضروبي السيف فـي الحـرب. ليُسمَع صياح من بيوتهم إذ تجلب عليهم جيشاً بغتة» (١٨:٢٠-٢٢).

إن المسيح من فوق الصليب لم يعمل معجزات، لكن صلاته هذه هي أروع مـن أعظـم المعجزات التي ميّزت طريقه وسط هذا العالم البائس: أن يغطي رؤوس قاتليه الفجـار بغطـاء غفرانه ليحميهم من عاصفة غضب الإله العادل!

هذا هو الإنسان الكامل الفريد. فعندما اسودت أمامه صفحة الحياة تماماً، تحّول إلـى الله، مخاطباً إياه: «يا أبتاه»، ثم عندما تلاطمت فوق رأسه أمواج الظلم من معذّبيه قال: «يا أبتـاه، اغفر لهم»!

يسوع مثالنا الأعظم

يقول البشير لوقا: «ولما مضوا به إلى الموضع الذي يدعى جمجمة صـلبوه هنـاك مـع المذنبين، واحداً عن يمينه والآخر عن يساره. فقال يسوع: يا أبتاه، اغفر لهم، لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون».

وعندما يذكر لنا الوحي اسم «يسوع»، يريد أن يُذكرنا بذلك الإنسان (فيسـوع هـو اسـمه الإنساني). إن ذلك الإنسان «يسوع» كان قد علّم الناس في بداية خدمته أسمى التعـاليم وأرقـى المبادئ، لا سيما في موعظة الجبل الشهيرة. وفي الإنجيل نفسه نقرأ جانباً مـن تلـك الكلمـات العظيمة: «أقول لكم أيها السامعون: أحبوا أعداءكم، أحسنوا إلى مبغضـيكم، بـاركوا لاعنـيكم، وصلّوا لأجل الذين يسيئون إليكم» (لو٦:٢٧،٢٨)، وختم المسيح موعظته هـذه بالتنبيـه علـى ضرورة العمل بكلامه لا الاستماع إليه فقط. لكن السؤال هو: هل عمـل يسـوع نفسـه بهـذه التعاليم، أم اكتفى بأن يلقّنها لغيره؟ لقد أتى قبل المسيح أولئك الذين جلسوا على كرسي موسـى، وكانوا يحزمون أحمالاً ثقيلة عسرة الحمل ويضعونها على أكتاف النـاس، وهـم لا يريـدون أن يحركوها بإصبعهم، وكانت خلاصة مشكلة أولئك المرائين أنهم «يقولون ولا يفعلون» (مـت٢٣: ٣). وقبل هؤلاء أيضاً جاء فلاسفة الإغريق، وعلموا البشر أيضاً تعاليم أخلاقية راقية، وكانـت مشكلتهم أيضاً أنهم يقولون ولا يفعلون، إذ تواجههم كلمة الله بالقول: «لأنك في ما تـدين غيـرك تحكم على نفسك. لأنك أنت الذي تدين تفعل تلك الأمور بعينها!» (رو٢:١).

حقاً، كم يسهل علينا أن نردد أعظم التعاليم التي لم نختبرها! فهل كان المسيح هكـذا؟ كـلا ألف مرة! فالمسيح ليس فقط علم الحق، بل كان هو نفسه الحق الذي علمه. لقد عمـل بمـا علـم، وعاش كما قال، وفعل ما نادى به. إنه لم يترك لنا فقط تعاليمَ إلهية، بل ترك لنا أيضاً مثالاً إلهيـاً. وتبرهنت بهذه الصلاة كلماته الرائعة التي كان قد قالها سابقاً «أنا من البدء ما أكلّمكـم أيضـاً بـه» (يو٨:٢٥).

يسوع مصلياً! إنه الإنسان، وكلماته إنسانية تماماً، لكن فيها شموخ النُبل الإنساني الـذي لم يعرفه أحد قبله. «أحبوا أعداءكم... وصلّوا لأجل الذين يسيئون إليكم» يا للمستوى الراقـي! صحيح، لقد صلّى إبراهيم خليل الله لأجل أهل سدوم الخطاة، لكنه صلّى لأجلهم من أجل لـوط ابن أخيه. وصلّى موسى كليم الله لأجل الشعب المخطئ، لكنهم أيضاً شعبه. لكن مَـنْ قبْـل مسيح الله صلى لأجل أعدائه؟ وإن كان شهداء المسيحية ساروا بعد ذلك على نهـج المسـيح القدوة، كما فعل مثلاً استفانوس الشهيد (أع٧: ٥٩،٦٠)، فإنمـا يظـل المسـيح هـو الأصـل والمصدر*، والكل تعلّموا منه، كما أنه لم يبلغ أحد القمة نظيره. إنه بحق نموذج للصفح عـن الإساءة، ودمه فعلاً «يتكلّم أفضل من هابيل» (عب١٢: ٢٤)، فدم هابيل، الشهيد الأول، صرخ

* يلفت النظر أن استفانوس صلّى لأجل نفسه أولاً، ثم بعد ذلك صلّى لأجل قاتليه، أما المسيح فكانـت أولـى عباراته من فوق الصليب هي صلاة لأجل قاتليه، وآخر عباراته (العبارة السابعة) هي صلاة لأجل نفسه!

إلى الله يطلب نقمته من أخيه، أما "يسوع"، الشهيد الأعظم، فقد طلب من الله الصفح لصالبيه!

وإذا رجعنا إلى إشعياء ٥٣، حيث النبوة الشهيرة عن آلام المسيح، نجد نحو عشر نبـوات تمت بدقة فائقة في المسيح الذبيح. وآخر نبوتين فيها هما «وأُحصيَ مع أثمـة، وهـو حمـل خطية كثيرين، وشفع في المذنبين».

«أحصيَ مع أثمة»: هذا ما فعله البشر به إذ صلبوه مع المذنبين واحداً عن يمينه والآخـر عن يساره. لكنه هو «حمل خطية كثيرين، وشفع في المذنبين»، وهذا ما فعله هنا عنـدما قـال: «يا أبتاه، اغفر لهم، لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون».

> إنَّ آخِرِ ما عندهم قـدموه لـه إذ صلبوه. فقدَّم هو لهم أول ما عنــده إذ تشــفع لأجلــهم. فعندما أفرغوا مـا في جعبتهم، بدأ هو يـفيض بالجود.

نعم، إن آخِر ما عندهم قدموه له إذ صلبوه. فقدم هو لهم أول ما عنده إذ تشفع لأجلهم. فعندما أفرغـوا ما في جعبتهم، بدأ هـو - تبـارك اسـمه - يفـيض بالجود. فختام أصحاح الآلام (إش٥٣) يشير إلى هـذه الصلاة التي هي أولى عبارات المسيح فوق الصليب.

والآن ماذا بالنسبة لنا؟ لقد ترك لنا المسيح مثالاً لكي نتبع خطواته، ونحن اليوم نمثل المسيح فـي هـذا العالم الهالك، فهل نصلّي نحن لأجل الآخرين؟ يقـول الرسول «فأطلب، أول كل شيء، أن تُقام طلبات وصلوات وابتهالات وتشكرات لأجـل جميـع الناس» (١تي٢:١).

ألا ليت المؤمنين اليوم تكون لهم رؤى مباركة تجاه العالم المذنب الأثيم، نظير تلك التي كانـت للمسيح يوم صلبه، فهكذا فعل الرسول بولس يوم محاكمته أمام أغريباس، عندما أذن الملـك لـه أن يتكلم لأجل نفسه، فلم ينشغل بنفسه قط، بل تكلم لأجل اهتداء الآخرين، وختم حديثه بـالقول «كنـت أصلي إلى الله أن... جميع الذين يسمعونني اليوم، يصيرون هكذا كما أنا، ما خـلا هـذه القيـود» (أع٢٦:٢٩).

لقد كان المسيح في ذلك اليوم محاطاً بالأعداء الأشرار الذين تطاولوا عليه، لكنـه صـلى لأجلهم. فماذا نحن فاعلون إذا تقابلنا مع من لا يعلمون ماذا يقولون، ولا على من يفترون، أو من ينكرون؟ ألعلنا نظير ابني الرعد نطلب ناراً من السماء تفنيهم (لو٩:٥٤)؟ أم أننا كسيدنا نصلي لأجلهم؟!

دعنا نلاحظ هذا:

- ☜ يقول الرسول «ليس أحد منّا يعيش لذاته، ولا أحد يموت لذاته» (رو١٤:٧). والمسـيح على الصليب لم يكن يموت لذاته، وكلماته الأولى لم تكن صلاة لنفسه. هكذا ينبغي أن تكون صلاة الكنيسة اليوم «أول كل شيء» لا لنفسها بل «لأجل جميع الناس».
- ☜ ونلاحظ أن صلاة المسيح هنا لم تكن لأجل الآخرين فقط بل الظالمين المفترين أيضـاً. وعندما كتب بولس أن تُقام صلوات لأجل جميع الناس، أضاف قائلاً «لأجـل الملـوك وجميع الذين هم في منصب». وكان ذلك على عهد نيرون الطاغية الذي قتـل بـولس في ما بعد. المسيح هنا يصلي لأجل قاتليه، وبولس يعلمنا الصلاة لمن كان سيقتله!
- ☜ ثم نلاحظ أيضاً أن صلاة المسيح للآب كانت لأجل غفران الخطايا. وينبغي أن تكـون رسالة الكنيسة: خدمتها وصلواتها، متجهة لخلاص نفوس الهالكين وغفران خطايـاهم. «لأن هذا حسن ومقبول لدى مخلصنا الله، الذي يريـد أن جميـع النـاس يخلصـون» (١تي٢: ٣،٤).

فإن نحن فعلنا ذلك لا نكون فقط قد تبعنا مثال المسيح وصلاته فوق الصليب، بل أيضـاً سعينا لإتمام غرض المسيح من موته على الصليب.

شفاعة المسيح وأساسها

لقد كان المسيح هو الشخص الوحيد الذي لم يقُل قط: "يا أبتاه اغفر لـي". فهـو - تبـارك اسمه - لم يكن محتاجاً أن يقول ذلك لأنه البار الوحيد الذي عاش على الأرض، والوحيد الذي لـم يعرف خطية. وكونه البار جعله مؤهلاً لأن يكون الشفيع الذي يتوسل لأجل المذنبين. فما كـان يصلح أن يتشفع مذنبٌ. في إشعياء ٥٣، قبل أن يحدثنا عن شفاعته في المذنبين، يقول «وعبـدي البار بمعرفته يبرر كثيرين»، فشفاعته في المذنبين مبنية على أساس مبدئي من بره الشخصي.

لكن هناك أيضاً شيئاً آخرَ هاماً ليمكنه أن يكون الشفيع. فالرب لما كان على الأرض لم يقل ولا مرة واحدة «يا أبتاه، اغفر لهم»، إذ كان هو نفسه يغفر الخطايا بسلطانه. حدث هذا في حياته على الأقل مرتين: المرة الأولى مع المرأة الخاطئة في لوقا ٧، والمرة الثانية مع الرجل المفلـوج في مرقس ٢. في المرتين اعتبروه مجدفاً لأنهم قالوا «من يقدر أن يغفر خطايا إلا الله وحـده؟»، وهي ملاحظة في محلها، لكن ما بَنَوه عليها من استنتاج كان خاطئاً تماماً. فصحيح أنّـه لا يقـدر

أحد أن يغفر الخطايا إلا الله، لكن مشكلتهم أنهم لم يروا فيه عمانوئيل «الله معنا»، فاستنتجوا أنـه مُضِل ومُجدف، وكان استنتاجهم هو التجديف وهو الضلال.

ونلاحظ أن المسيح لما غفر خطايا المفلوج علق على هذا بالقول «لكي تعلمـوا أن لابـن الإنسان سلطاناً على الأرض أن يغفر الخطايا» (مر٢: ١٠). نعم، لما كان على الأرض كـان له السلطان أن يغفر الخطايا، أما الآن وقد ارتفع عن الأرض بالصليب، فإنه كان يدفع حسـاب الخطايا. لهذا فإنه لم يقل "أنا أغفر لكم"، بل قال «يا أبتاه، أغفر لهم». لقد كان المسـيح فـي ذلك الوقت ممثلاً للبشرية، وكان آخِذاً مكان البشر الآثمين. فكأن المسيح وهو على الصـليب يقول للآب: "اغفر لهم وأنا مستعد لدفع الحساب. إن ظلمهم الذي ظلموه، والدين الذي علـيهم، احسبه علي وأنا أوفي" (قارن فل١٨،١٩).

إذاً فهناك شرطان ليكون الشخص شفيع الخطـاة: أولاً أن يكون هو باراً، وثانياً أن يتحمل أجرة خطاياهم وقصاصها. وهو عين ما نقرأه في إشـعياء ٥٣: ١١، ١٢ «وعبدي البار بمعرفتـه يبـرر كثيـرين»، ثـم «وآثامهم هو يحملها». مِن ثَم أمكنـه أن يقـول فـي النهاية «شفع في المذنبين».

ما أعظم أهمية غفران الخطايا! إنــه أول احتيــاج للإنســان، وأول بركة للمؤمن. لهذا كـان هـو أيضـاً أول نطـق للمسـيح على الصليب.

هذا يجعلني الآن أشير إلى أهمية بركـة غفـران الخطايا. قال داود «طوبى للذي غُفر إثمـه وسُـتِرت خطيته» (مز٣٢: ١). إن أعظم بركة يمكن أن ينالهـا الإنسان هي بركة غفران خطاياه. ما قيمة أن تكـون ملكاً أو عظيماً أو عالِماً إن لم تكن متمتعاً قبل كل ذلك ببركة غفران الخطايا. إنه حقاً سـعيد ومغبوط ذاك الذي غُفرت خطاياه، وعرف ذلك.

قال داود في مزموره الشهير وهو يعدد حسنات الرب «باركي يا نفسي الرب ولا تنسي كل حسناته. الذي **يغفر جميع ذنوبك**. الذي يشفي كل أمراضك. الذي يفدي من الحفـرة حياتـك. الذي يكللك بالرحمة والرأفة. الذي يشبع بالخير عمرك فيتجدد مثل النسر شبابك» (مز١٠٣: ١-٥). هنا ست حسنات، لكن على قمتها جميعاً ذلك الإحسان العظيم «الذي يغفر جميع ذنوبك».

والرب، كما أشرنا، قبل أن يقول للمفلوج «قم احمل سريرك وامش»، قال لـه أولاً «مغفـورة لك خطاياك». فما أعظم أهمية غفران الخطايا! إنه أول احتياج للإنسـان، وأول بركـة للمـؤمن.

لهذا كان هو أيضاً أول ناطق للمسيح على الصليب.

والغفران في المسيحية ليس مبنياً على غير أساس، ولا هو مبني على رحمة الله فحسب دون عدله وبرّه. إنه مبني على أساس احتمال المسيح للعقوبة ودفعه للغرامة. «فإن المسيح أيضاً تألم مرة واحدة من أجل الخطايا، البار من أجل الأثمة، لكي يقربَنا إلى الله» (١بط٣: ١٨). لقد صُلِبَ المسيح ليمكنه أن يغفر خطايانا. فلا عجب أن ينطق المسيح، أول ما ينطق، بهذه العبارة العظيمة «يا أبتاه أغفر لهم».

قال الرسول بولس في أعمال ٣٨:١٣ «ليكن معلوماً عندكم أيها الرجال الإخوة، أنه بهذا (أي بهذا الشخص الذي هو المسيح) يُنادى لكم بغفران الخطايا». وقال الرسول يوحنا أيضاً «أكتب إليكم أيها الأولاد، لأنه قد غُفرت لكم الخطايا من أجل اسمه» (١يو٢: ١٢). فهل أنت أيها القارئ العزيز متمتع بهذه البركة العظيمة التي يقدمها الله لك مجاناً على حساب عمل المسيح لأجلك على الصليب؟ ليت هذا يكون من نصيبك اليوم، بل الآن!

سموُّ صفات اللّه!

إن عبارة المسيح الأولى من فوق الصليب تُبرز لنا جانبين من الحق. فمن الجانب الواحد تبرز لنا سمو صفات الله، ومن الجانب الآخر تبرز عمق جهل الإنسان وقوة تأثير الشيطان فيه.

نعم، ما أعجب **محبة** الله التي نراها في هذا القول «اغفر لهم... لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون»! فالإنسان المجني عليه عادةً لا يرى في القضية وظروفها إلا أدلة الإدانة ضد الطرف الآخر. أما المسيح فبينما كان أعداؤه يوجعونه بالإساءات، كان هو - تبارك اسمه - يتلمس لهم المعاذير. فما أعجب محبة المسيح التي كانت بيان محبة الله غير المحدودة للخطاة! (رو٥: ٨).

وترينا هذه العبارة أيضاً **رحمة** الله التي ليس لها حدود. فمَنْ أولئك الذين كان المسيح يقصدهم بقوله «لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون»؟ ربما تقول إنه كان يقصد العسكر الرومان الذين قاموا بعملية الصلب ذاتها، لأن هذه العبارة قالها المسيح بعد قيام العسكر بصلبه مباشرةً، ولأن أولئك العسكر كانوا الأقل ذنباً بين قاتلي المسيح لأنهم أمم لا يهود، ولم تكن بين أيديهم التوراة التي تحدّثهم عن مسيح الله، ثم لأنهم كانوا يقومون بعملهم تنفيذاً لأوامر صدرت إليهم

من جهات عُليا. بالتأكيد كان المسيح يقصد العسكر، لكنه كان يقصد غيرهم أيضـاً. وعنـدما نصل إلى سفر الأعمال، الأصحاح الثالث، نجد بطرس يتكلم بالروح القدس إلى اليهود فيقـول «أنا أعلم أنكم **بجهالة عملـتم** كما رؤساؤكم أيضاً». ومن بين اليهود الأشـرار بـرز شـاب متعصّب اسمه شاول الطرسوسي قال عن نفسه إنه كان مجدفاً ومضطهداً ومفترياً؛ ثـم أردف قائلاً «لكنني رُحِمت، لأني **فعلت بجهل** في عدم إيمان» فيا لرحمة المسيح الذي يعتبر صـالبيه قاتلي نفس سهواً؛ ويعتبر أن في فعلتهم هذه لم يكن أي عمد* على الإطلاق!

ثم إن هذه العبارة تحدثنا أيضاً عن **أناة الله**. «يا أبتاه اغفر لهم لأنهم لا يعلمون». إنهـم في حاجة إلى غفران. والحاجة إلى غفران تتضمن مُذنِبيتهم (اعتبارهم مذنبين)، لكن لكي يـتم الغفران تلزم توبتهم أولاً. وكأن المسيح بصلاته هذه أعطاهم فرصة للتوبة، وأتاح لهم الفرصة ليسمعوا الكرازة فتستيقظ ضمائرهم. ولولا أن الله سمع صلاة المسيح هذه لَشـقّ الأرض مـن تحت أقدامهم وجعلها تبتلعهم أحياء ولانتهى كل شيء بالنسبة لليهود في ذلك اليوم. لكـن يـا لأناة الله! فلقد نعمت أورشليم الشريرة العاصية بأن تسمع أخبار قيامة المسيح، ويُنَادَى فيهـا، وعلى مدى أربعين عاماً، بأخبار الإنجيل المفرحة، وترن في جنباتها أنغامـه الشـجية، قبـل خرابها على يد تيطس الروماني.

أكان أولئك الأشرار القتلة يستحقون هذه الصلاة؟ كلا، لقد كانوا على العكـس يسـتحقون القضاء واللعنة. وأغلب الظن أنها مرت على أسماعهم في يوم الصلب دون اكتـراث، أو ربمـا أصبحت مادة جديدة لسخريتهم واستهزائهم. لكنه هو وجهها إلى الله، والله سمعها. كأن المسـيح هنا كرر نفس ما قاله في مثل شجرة التين العقيمة، والتي أراد المالك أن يقطعها، فقال له الكـرام «يا سيد، اتركها هذه السنة أيضاً» (لو١٣: ٨). هكذا المسيح هنا كأنه قال لله "تمهل على أولئـك الأشرار وامنحهم فرصة أخرى، لعلهم يتوبون ويرجعون فأخلّصهم".

لكننا أخيراً نرى في هذه العبارة مقياس **قداسة** الله. «اغفر لهم... لأنهم لا يعلمون مـاذا يفعلون». وهذا معناه أنه حتى خطايا الجهالة والسهو تحتاج إلى غفران، وتحتاج إلى كفـارة، وهو ما يُظهر سمو مقياس قداسة الله وبره، وبالتالي عُظم احتياجنا نحن. فإن كانـت خطايـا السهو يحاسِب اللهُ عليها، فماذا عن العمد؟! وبالإجمال ماذا نحن فاعلون أمام الله الـذي هـذا

---

* بهذه الصلاة، إذ اعتبر المسيح خطية أولئك الأشرار ليست خطية عمدية، فقد فتح أمـامهم بـاب مدينة الملجأ باعتبارهم قاتلي نفس سهواً. وهو الباب الذي دخله كثيرون من اليهـود قبـل أن يدركهم الغضب إلى النهاية (قارن عد٣٥: ٩-٣٤؛ أع٣: ١٧-١٩؛ عب٦: ١٨).

مقياس قداسته؟ «مَنْ مِنا يسكن في نار آكلة؟! من منا يسكن في وقائد أبدية؟!» (إش٣٣: ١٤).

عمق شر الإنسان

لكن صلاة المسيح هذه تُبرز من الجانب الآخر شيئاً مهماً آخر، هو عمق جهل الإنسان وقوة تأثير الشيطان فيه؛ «يا أبتاه، اغفر لهم، لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون». أيمكن أن يفعل الإنسان العاقل ما لا يعلمه؟ نعم، بكل أسف هذا هو ما حدث فعلاً عند الصليب، وهو نفسه يحدث اليوم أيضاً. ويعلمنا الكتاب المقدس أن إله هذا الدهر (أي الشيطان) قد أعمى أذهان غير المؤمنين لئلا تضيء لهم إنارة إنجيل مجد المسيح. وكم هي قاسية قوة الشيطان في تضليل البشر، حتى إنهم لما أتاهم نور العالم لم يروه، ولما أتاهم ابن الله الكريم لم يُقدروه، ولما ارتكبوا الجريمة الأفظع والأشنع، ألا وهي جريمة صلبه، لم يعلموا ماذا هم فاعلون!

ولهذا فإن الرب اليوم - في صلاحه - لا يوجه بشارة الإنجيل فقط للذين يعرفونه بالاسم، إلى مرتادي الكنائس ومعتادي الذهاب للاجتماعات الدينية، بل إنه يوجهها أيضاً إلى كل من تمادوا في البعد عنه حتى انطبق عليهم القول «لا يعلمون ماذا يفعلون»، بل إنه يرسل ضياء إنجيله إلى حيث يوجد الظلام، ويُشع بضياء معرفته حيث يسود الجهل، وكلماته العجيبة ما زالت أصداؤها ترن إلى الآن «اغفر لهم... لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون».

هل وصلت هذه الكلمات إلى إنسان يعادي المسيح لغير سبب؟ إن صلاة المسيح هنا تضمن لك البركة والخلاص. فهذه الصلاة أظهرت فاعليتها العجيبة بعد النطق بها مباشرةً، إذ خلصت أحد اللصين اللذين صُلِبا مع المسيح، كما خلصت ثلاثة آلاف من اليهود في عظة واحدة حسبما ورد في أعمال٢، نقول إن هذه الصلاة العجيبة ما زالت فعالة حتى اليوم، وما زال الله يستجيب لها في آلاف الذين يرجعون إلى الله يومياً.

هذا يجعلني أختم تأملاتي في هذه العبارة المجيدة التي نطق بها المسيح من فوق الصليب بهذه الأسئلة المحددة: إن كان المسيح، وهو فوق الصليب، قد صلى طالباً الغفران لأجل من تمادَوا في الشر فوق التصور، وجاوزوا في العداء له كل الحدود، إذ صلى لأجل صالبيه أنفسهم، فهل يبقى لدينا أي يأس من جهة خلاص أي إنسان مهما كان شره؟ إنه لو كانت هناك لحظة ممكن أن تتوقف فيها توسلات المسيح لأجل المذنبين، لكانت هي تلك اللحظة التي قام فيها الأشرار بتعليقه وتسميره على الصليب، عندما قاموا في وحشية بهذا العمل الفظ الرهيب. فإنْ كان الرب قد نطق بهذا القول العجيب في ذلك الوقت، فلماذا تؤجل الرجوع إليه ولو لحظةً أخرى؟ لماذا «تستهين بغنى لطفه وإمهاله وطول أناته، غير عالم أن لطف الله إنما يقتادك إلى التوبة»؟

إن الرب اليوم لا يوجِّه بشارة الإنجيل فقط لمرتادي الكنائس، بل إنه يوجهها أيضاً إلى كل من تمادوا في البعد عنه حتى انطبق عليهم القول «لا يعلمون ماذا يفعلون».

نعم، إنهم لا يعلمون. وما زال العالم إلى اليوم يغط في ظلمة الجهل ولا يعلم حقيقة شخص المسيح، وحقيقة صلب ابن الله، ولماذا صُلب. لكن ليتك أنت أيها القارئ العزيز تسرع إلى المسيح بالتوبة القلبية الصادقة وبالإيمان الحقيقي.

العبارة الثانية من فوق الصليب

كلمات الترفُّق

وكانت واقفات عند صليب يسوع، أمه، وأخت أمه، مريم زوجة كلوبا، ومريم المجدلية. فلما رأى يسوع أمه، والتلميذ الذي كان يحبه واقفاً ،قال لأمه:

يَا امْرَأَةُ، هُوَذَا ابْنُكِ.

ثم قال للتلميذ:

هُوَذَا أُمُكَ.

ومن تلك الساعة أخذها التلميذ إلى خاصته.

(يوحنا ١٩:٢٥-٢٧)

نساء عند الصليب

رأينا، ونحن نتأمل في كلمات المصلوب الأولى، شخص ربنا يسوع المسيح وهـو وسـط أناس أشرار وخطاة، ساموه ألوان العذاب، ثم سمّروه معلقين إياه على الصليب، فجاءت عبارته الأولى، عبارة الصفح وطلب المغفرة لصالبيه، وقال: «يا أبتاه، اغفر لهم، لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون».

ولكن وسط موجة الحقد والشماته المكتسِحة، نرى مشهداً آخر مختلفاً تماماً، متمـثلاً فـي جماعة صغيرة تقف إلى جوار المتألم القدوس وهو في لحظاته الأخيرة. إنه مشهد "نساء عنـد الصليب" يرفعن عيونهن الدامعة نحو المصلوب ناطقة بكل معاني الولاء والوفاء.

كانت الجلجثة في ذلك اليوم مكتظّة بالناس أشكالاً وألواناً. كثيرون أتوا بـدوافع مختلفـة متباينة: مِنهم مَن أتى بدافع الفضول وحب الاستطلاع، ومِنهم مَن جاء بدافع التشفي والشـماتة، ومِنهم مَن كان يؤدي مهمة. أما هذه الجماعة فأتت بدافع المحبة والوفاء.

كانت هذه الجماعة تتكون من أربع نساء*، وكان معهن يوحنـا الحبيـب تلميـذ المسـيح

* هناك من يعتقد أن هذه الجماعة كانت تتكون من ثلاث نساء فحسب هن مريم أم يسوع، وأخـت أمه، وهي بعينها مريم زوجة كلوبا، ثم مريم المجدلية. لكننا نستبعد أن أختين يكون لهما الاسم ذاته. ونفضل أن نقرأ هذه الأسماء باعتبارها مذكورة اسمين اسمين: المجموعة الأولى مـريم أمه وأخت أمه، والثانية مريم زوجة كلوبا ومريم المجدلية.

الوفيّ. أما النساء الأربع فهن: مريم أم يسوع، وأخت أمه (وهي على الأرجح سالومي أم يعقوب ويوحنا ابني زبدي. ولم يذكر يوحنا اسمها، فكما تحاشى ذكر اسمه تواضعاً منه هكذا أيضاً تحاشى ذكر اسم أمه)، والمرأة الثالثة هي مريم زوجة كلوبا، والرابعة مريم المجدلية.

شبه أحدهم هذه الجماعة الصغيرة التي عند صليب يسوع وسط جمهور الفجار بشجيرة ورد صغيرة تطل بين أشجار الشوك والعوسج**، وهي كأكاليل الزنبق البديعة الطاهرة تحيط بصليب المخاص الذي يدنو من الموت.

وللنساء الحق أن يفتخرن على الرجال لِما أظهرنه في حياة المسيح وفي موته. فلا نقرأ عن امرأة خانت المسيح أو أنكرته، ولا امرأة أهانت المسيح أو قاومته. بل على العكس، فبينما هرب تلاميذه الرجال كلهم، كان عند الصليب أكثر من امرأة. إنهن كن آخِر من غادر المشهد في غروب يوم الصليب، كما كُن أول من ذهب إلى القبر في فجر يوم القيامة.

أوليس هذا عجباً، أن يلوذ الرجال بالفرار وتبقى النساء صامدات؟! حقاً «قُسِيّ الجبابرة انحطمت، والضعفاء تمنطقوا بالبأس» (١صم٢:٤).

تأمل أيها القارئ العزيز ماذا تستطيع النعمة أن تعمل للضعيف وبالضعيف! فها صاحِباتُ القلوب الواهنة الضعيفة يقفن في ثبات وشجاعة إلى جوار «مكروه الأمة»، لا يعبأن بالإهانة التي قد تلحقهن، ولا بالخطر الذي قد تتعرض له حياتهن، لعلهن يستطعن تخفيف أحزان «المهان النفس» وآلامه، فإن ذلك المصلوب كان بحق هو محور حياتهن.

قد يقول أحدنا إنه كان أيسر على النساء في ذلك اليوم العصيب الوجود في مكان الصليب. وقد يكون لهذا القول نصيب من الصحة، لكن الشيء الجميل أنهن استخدمن تلك الإمكانية استخداماً حسناً. وما أجمل أن يبادر الواحد منا ليعمل الحسن الذي يعرفه، فإن «مَنْ يعرف أن يعمل حسناً ولا يعمل، فذلك خطية له» (يع٤:١٧).

** يلفت النظر أن يوحنا ذكر هؤلاء النساء الأربع مباشرة بعد أن أشار إلى الأربعة عساكر الذين صلبوا يسوع، ثم اقتسموا ثيابه بينهم وعلى لباسه ألقوا قرعة. فحقاً ما أشد المباينة بين جماعة وجماعة!

أمه كانت عند الصليب

ومن بين هؤلاء النساء الأربع اللاتي وقفن عند الصليب سنركز حديثنا علـى شخصـية واحدة هي أم ذاك المصلوب، التي هي بحق الأم المثالية لكل الأجيال ولكـل الأجنـاس. لقـد تخاذل تلاميذ المسيح وهربوا، لقد تخلى عنه أصدقاؤه ومحبوه ووقفوا تجاه ضربته، لقد تنكرت له أمته واحتقرته مفضِلةً باراباس القاتل عليه. أما أمه، فهل يمكنها أن تهرب منه أو تتنكر له؟ حاشا بل ها هي قريبة منه في موته كما كانت في مولده.

وقصة المطوبة مريم هي قصة امتزج فيها الشرف والمجد بالمعاناة والألم. فمـن بدايـة الرواية، لما ظهر لها الملاك جبرائيل وبشرها، يذكر لنا البشير لوقا أنهـا «اضـطربت مـن كلامه، وفكّرت: ما عسى أن تكون هذه التحية». ولكن اضطرابها وأفكارها في ذلـك اليـوم كانت فقط مقدمة لاضطرابات وأفكار ومعاناة كثيرة لحقت بعد ذلك.

أيمكن أن ننسى نظرات الشك والريبة في أمرها من جميع عارفيها؟ حتى خطيبهـا يوسـف أراد تخليتها سراً، لولا ظهور ملاك السماء له. ثم أننسى بعد ذلك، يوم حان موعد ولادة الطفل، إذ لم يكن لهما موضع في المنزل فولدت الوليد العظيم ووضعته في مكان لا يليق ببشر، بل في مكـان للبهائم؟ ثم أننسى كيف اضطرت بعد الولادة أن تهرب بالصبي يسـوع إلـى مصـر، إذ طلـب هيرودس أن يقتله، فقاست في مصر قسوة الاغتراب بين قوم لا تعرفهم دون ذنب فعلت أو جريرة؟

ومرت الأعوام، وخرج السيد العظيم للخدمة الجهارية، وطبقـت شـهرته الآفـاق، والأم تترقب تحقيق وعد الملاك بالعرش والمُلك. لكنها أيضاً كانت تتابع الموقف العـدائي الملتهـب الذي وقفته أمّته منه. لقد سمعت باحتقار الأمة له، وعدائها نحوه، ووعيدها ومؤامراتها، وقلب الأم يخفق إشفاقاً وترقباً.

بالإجمال نقول إنه لم تعرف أم غبطة نظير غبطة المطوبة مريم، كما لـم تقـاسِ أيضـاً أم نظيرها آلاماً ومعاناة على مدى حياتها، فكم بالأحرى الآن وهي عند الصليب! لعلها تذكرت أنـه من أكثر من ثلاثين عاماً خلت، وهي ما تزال في أيام شبابها، عندما حملت على ذراعيها وليـدها فخورة ومعتزة به، سمعت من سمعان البار كلاماً نبوياً غريباً إذ قال «إن هذا قد وُضِـع لسـقوط وقيام كثيرين في إسرائيل»، ثم قال لها «**وأنت أيضاً يجـوز فـي نفسـك سـيف**» (لـو٢:٣٥). والأرجح أنها لم تفهم معنى كلماته وقتذاك. ولعلها تفكرت كثيراً، في ما بعد، ما عسى أن تعنيـه

نبوته هذه. أما الآن، وهي إلى جوار الصليب، فقد عرفت كل شيء.

لقد استيقظ سيف رب الجنود على راعي إسرائيل ليضرب المسيح (زك١٣:٧)، لكن في الوقت نفسه كان هناك سيف آخر يجتاز في أحشائها وهي بجوار ذياك الصليب.

أحزان بحر المر

لعلك لاحظت، عزيزي القارئ، أنه من بين النساء الأربع اللائى كن عند الصليب كانت ثلاثة منهن باسم مريم، الاسم الذي يعنى مرار. فيقال إن مريم بالعبري هي كلمة من مقطعين: المقطع الأول بمعنى مر، والمقطع الثاني "يم" بمعنى بحر. فمريم تعني، كما يرى البعض، "بحر المر". ولقد كان عند صليب يسوع مرار مثلث، وهؤلاء المريمات كن يتجرعن المرار والعلقم في أفظع صوره، إلا أن المرار الذي كانت فيه أم يسوع كان أشد أنواع المرار، وذلك للأسباب الأربعة الآتية:

نعم، مَنْ يقدر أن يُقدِّر حجم الكارثة الدهماء التي ألمَّت بالمطوَّبة مريم وهي ترى ابنها بين أيدي أعداء عُتاة، يقاسي الهوان ويتجرع الموت وهو فوق صليب العار، وهي تراه يموت وتعجز عن مواساته.

أولاً: إن من أصعب الأمور على قلب الأم أن ترى ابنها يموت. فأي أم ترجو أن ابنها هو الذي يواريها التراب. لكن أية كلمات تصف لنا حزن أم الرب وهي تنظر إلى ابنها يموت مُعلقاً على صليب! إن يسوع لم يكن مجرّدَ ابنٍ وفيّ، بل كان هو كمال الكمال في كل شيء. إنه لم يفعل شيئاً ليس في محله، ولم يترك شيئاً في محله إلا وعمله. إنه، بين البنين، «كالتفاح بين شجر الوعر». وتلك التي كانت تفخر بأنها أمه، كيف لا يخترق السيف أحشاءها وهي تراه يموت أمام عينيها؟

ثانياً: لم يكن المسيح مجرد شخص نبيل تفخر به أي أم فحسب، بل لقد كانت أمه، قبل أي شخص آخر، تعرف حقيقة أصله ومقدار عظمته. لقد قال لها الملاك جبرائيل يوم أن بشّرها بولادته «هذا يكون عظيماً، وابن العلي يُدعى، ويعطيه الرب الإله كرسي داود أبيه، ويملك على بيت يعقوب إلى الأبد، ولا يكون لمُلكه نهاية». أمّا الآن فلها أن تتساءَل بقلبها الكئيب، وهي تشاهد شمسه تغيب: أين تلك العظمة المُتنبَأ عنها؟ وأين ذاك العرش وذاك

الملكوت؟ أيكون الملاك قد خدعها؟ أتقول مع أيوب في بلواه: «فأين إذاً آمالي؟ آمالي مَـنْ يعاينها؟». نعم لقد زاد من قسوة الحزن على موت ابن بار، أنها كانت تحت وقع أمل ينهـار، والجُرح عميق، والسيف بتّار!

ثالثاً: لكن حُزن قلبها المكلوم قد تضاعف لشيء ثالث: فليس أن ابنها يمـوت فقـط، وأن العظيم وابن العلي «يُقطع وليس له»: أي ليس له شيء على الإطلاق. نعـم لـم يكـن ذلـك فحسب، بل ها إنه يموت ميتةً كهذه. يموت مصلوباً على خشبة، أي يمـوت مـوت اللعنـة، ويُحصَى مع أثمة. ويُعير من القادة والعامة بأشنع العبارات في مسمعه ومسمعها أيضاً. نعم، مَنْ يقدر أن يُقدر حجم الكارثة الدهماء التي ألمت بالمطوبة مريم وهي ترى ابنها بـين أيـدي أعداء عُتاة، يقاسي الهوان ويتجرع الموت وهو فوق صليب العار.

وأما **رابعاً**: فهي تراه يموت وتعجز عن مواساته. وهنا أقتبس كلمات آخَر قال: "ها دماؤه تنزف من جبينه وهي لا تقوى على تجفيفها. حَلْقه يبس، وتحس بحاجته إلى الشُرب، لكن غيـر مُصّرح لها أن تُبللّه بقطرة ماء. يداه، تلك اليدان اللتان أمسكت بهما في طفولته، وقدماه اللتـان درّجتهما في أولى خطواته، ها هي الآن مُسمّرة بالمسامير. وثغره الباسم التي كانـت هـي أول من طبعت عليه قبلات فمها، ها هو الآن في حالٍ آخر. وها الجبين الوضّاح تعلـوه الأشـواك والجراح. بالإجمال «كان منظره كذا مُفسداً أكثر مـن الرجـل» (إش٥٢: ١٤). إنهـا تُحـس بوخزات المسامير، وتلك الأشواك التي طوّقت رأسه كانت كأنها غلالة من لهب حول قلبها هي. وتعييرات المُعيّرين جرحتها هي مثلما جرحته".

بـ ـينَ الجمـ ـوعِ الزاحفـ ـةْ ... أمْ هُنالِـ ـ ـ ـكَ واقفـ ـ ـ ـةْ
بـ ـالحزن حاكـ ـت ثوبَهـ ـا ... والـ ـنفسُ فيهـ ـا راجفـ ـةْ
سـ ـاقوا ابنَهـ ـا للـ ـذبح فـ ـي ... غـ ـدرٍ وقلـ ـبٍ قـ ـدْ جَفـ ـا
نظَـ ـرتْ إليـ ـهِ حزينـ ـةً ... تبكـ ـي بعـ ـينٍ آسـ ـفةْ
صَلبوا الـ ـذي بـ ـالخبز أطـ ـ ـ ... ـ ـعَمَهُم ومرضَـ ـاهُم شـ ـفى
كـ ـان الرجـ ـاءُ بِـ ـكَ بُنـ ـيّ ... وهـ ـا الرجـ ـاءُ بِـ ـكَ انطفـ ـا

إن المطوّبة مريم على مثال ابنها البار، هي أيضاً مُختبرة الحَزَن. ومع أنها كانت تُعاني

هذا الشَجَن المُذيب، فمع هذا لا نراها في حُزن هستيري ولا في نوبات تشـنّج: لا نقـرأ عـن لطماتها ولا عن صرخاتها، ولا نقرأ أنها كانت منهارة، بل يقول البشير: «وكانت واقفات عنـد صليب يسوع مريم أمه». كانت تعاني حزن روحها العميق في صمت!

ماذا لو كانت هربت لكي لا ترى هذا المنظر؟ ماذا لو خارت قواها؟ ماذا لـو سـقطت مغشيّاً عليها؟ يقيناً كنا سنلتمس لها المعاذير والأسباب القوية. لكنها إذ رأت أنها لا تسـتطيع أن تخفف من آلامه، فإنها على الأقل لا تزيدها إذا رآها منهارة، وقد فارقتها قواها. لذا نقـرا أنها كانت واقفة!

إن يعقوب، الرجل، لم يحتمل أن يرى قميص ابنه المحبوب يوسف مغموساً في الدم. أمـا المطوّبة مريم فقد رأت مَنْ هو أعظم من يوسف وقد اقتسم العسكر كل ثيابه، وجسده كله ينـزف الدم، ويموت أمام عينيها كما يموت السفهاء!

يا لعظمة التعبير «واقفات»! يا للبطولة والشجاعة والثبات، بالإضافة إلى الحب والوفـاء الذي نستشفه من قول الوحي «كانت واقفات عند صليب يسوع»!

هذا ما كان من مريم أمه وباقي النساء الواقفات معها في ذلك اليـوم العصـيب، فمـاذا بالنسبة لك أيها القارئ الحبيب؟ إن الصليب في نظر اليهودي عثرة، وفـي نظـر اليونـاني جهالة، فما هو في نظرك أنت؟ أتراكَ تنفر من الصليب الذي كان وسيلة فدائك؟ أتخجل من المصلوب الذي أحبك ومات لأجلك؟ عارٌ عليك، إذا فعلت، عظيم!

لقد كانت واقفات عند صليب يسوع في ذلك اليوم أمه وباقي النساء، أفلا تقف أنت اليوم؟ هلا أسمعك تُنشِد مع المرنم بشموخ:

قِـفْ بجـوار الصـليبْ	أيهـا الجنـدي الجبـارْ
سـنغلبُ عَـنْ قريـبْ	ونرجـعُ بالإنتصـارْ

لما رأى يسوعُ أمَه

لقد أشرنا في ما سبق إلى آلام المطوبة مريم، أما هو، حبيبنا يسوع، وأما آلامه فمَن فينـا يقدر أن يدركها؟ لقد تحدثنا عما عملته المطوّبة مريم لأجله: لقد عملت كل ما كانت تسـتطيع

أن تعمله. أما هو، ذلك المصلوب، وأما ما عمله هو لأجلها بل ولأجل كل البشر، فلقد كان يعمل ما يستطيع هو وحده أن يعمل، وما لم يكن أحد سواه يستطيع أن يعمله. إن عملها كان منتهى الإخلاص، وأما هو فقد قام بصنع الخلاص.

يقيناً كانت آلام النساء في ذلك اليوم، ولا سيما آلام أمه، عظيمة، أما آلامه هو فكانت بكل يقين أشد بما لا يُقاس. كانت آلامهن، وهن واقفات عند الصليب، شديدة، أما آلام المصلوب نفسه فما كان أشدّها! لقد كانت كافية لتجعله ينسى، في سعيرها، كل شخص وكل شيء حوله. إن شدة آلام النساء أعجزتهن عن الكلام، فلم تستطع واحدة منهن أن تنطق ببنت شفة، أما هو ففي آلامه الأشد نطق وتكلم. فتعالوا بنا نستمع إلى أقواله العجيبة في هذا المشهد المذيب.

> إن شدة آلام النساء أعجزتهن عن الكلام فلم تستطع واحدة منهن أن تنطق ببنت شفة، أما هو ففي آلامه الأشد نطق وتكلم بأقوال عجيبة في هذا المشهد المذيب.

لقد كان المسيح كمال الكمال في كل شيء، وقبل مولده بمئات السنين قال عنه إشعياء النبي «ويُدعى اسمه عجيباً» (إش٩:٦). أ كان يمكن أن ذلك الكامل العجيب لا يهتم بأمه*؟! لقد ذكر قاتليه فهل ينسى أمه؟! أ كان يمكن أن ينسى تلك الأم الحزينة الواقفة عند الصليب؟!

قال واحد: "في حياة ربنا يسوع المسيح من أولها إلى آخرها نجد مزيجاً عجيباً من العظمة والاتضاع، فإذا لمع شعاع من أمجاد لاهوته مضيئاً مُبرقاً لا نلبث أن نراه إنساناً مثلنا من لحم ودم". وهو عينه ما نراه هنا عند الصليب.

عندما صلى المسيح وهو فوق الصليب لأجل أعدائه، كان هذا من صميم رسالته، كقول الوحي «وهو حمل خطية كثيرين، وشفع في المذنبين» (إش٥٣:١٢). وإن كان قد اهتم بلص تائبٍ وثق به، فهذا أيضاً يتفق ورسالته باعتباره المخلص كقوله هو «لأن ابن الإنسان قد جاء لكي يطلب ويخلص ما قد هلك» (لو١٩:١٠). لكن أن يهتم في ساعةٍ كهذه بأمر عائلي، ويكرس بعض وقته

---

* يمكننا أن نستنتج من العديد من فصول العهد الجديد أن يوسف رجل مريم كان قد مات منذ فترة (انظر على سبيل المثال مت١٣:٥٥)، وبالتالي فإن المطوّبة مريم كانت في ذلك الوقت أرملة، وكانت مسؤولية العناية بها تقع أساساً على الرب يسوع الذي يُسمّى بأنه «ابنها البكر» (مت١:٢٥؛ لو٢:٧).

لشأن من شئون الحياة العادية فهذا هو الكمال الإنساني بعينه.

لاحَظ أحدهم أن الرب يسوع من فوق جبل الموعظة وهو يُلقى موعظة الجبل الواردة في متى ٥-٧ أضفى أبعاداً عظيمة ومجيدة على كل وصايا الناموس تقريبـاً، باسـتثناء الوصـية الخامسة التي تقول «أكرِمْ أباك وأمك». لكن ما لم يقله الرب من فوق الجبل قاله مـن فـوق الصليب، لا بوصفه معلماً قديراً، بل مثالاً لا نرى له نظيراً. إن سيدنا هنا بمثاله الرائع يضفي على تلك الوصية ما لم يكن ممكناً أن تفعله أقوى العظات، ولو استغرقت ساعات.

«فلما رأى يسوع أمه، والتلميذ الذي كان يحبه واقفاً، قال لأمه: يا امرأة هوذا ابنـك، ثـم قال للتلميذ هوذا أمك».

كـان الرجـاءُ يـكَ بُنـيّ وهـا الرجـاءُ يـكَ انطفـا
خـوفي، فلـيسَ الآنَ لـيْ سـندٌ ولا ابـن أعرِفَـهْ
فـإذا بصـوتِهِ فائضـاً بالحـب يعلـو هاتفـا
يـا امـرأةُ هـوّذا ابنُـكِ كيـفَ أقُوتُـكِ خائفـةْ
عجبي علـى المصلوبِ مـا أنْسَـته كربتُـه الوفـا
ربـاه مـا أحلـى حَنَـانكْ ومـا أرقّ وألطـف

إن الرب لم ينسَ أن المطوّبة مريم امرأة وأنها أم. وأية أم ممكن أن تتحمل مـوت ابنهـا أمامها، ولا سيما إذا كان «كالتفاح بين شجر الوعر كذاك (هو) بين البنين»؟! لهذا يقول الـوحي «ومن تلك الساعة أخذها التلميذ إلى خاصته».

والآن دعني أقول لك أيها القارئ العزيز: إن القلب الذي أشفق وهو على الصـليب، مـا زال يُشفق على كل متألم ويرثي لكل مُجرب. إنه يحيط باهتمامه وعنايته كل خاصـته الـذين في العالم والذين أحبهم إلى المنتهى (يو١:١٣). وهو إن كان قد اهتم بأمه، فلا ننسَ أنه قـال مرة «إن مَنْ يصنع مشيئة أبي الذي في السماوات هو أخي وأختـي وأمـي» (مـت٥٠:١٢). فليتعز المحزونون وليتشجع المحتاجون لمن يهتم ويرثي (١بط٧:٥؛ عب١٥،١٦:٤)، وليـتعلم المتوحدون حقاً أن يلقوا كل رجائهم عليه هو، ذاك الذي له قال المرنم:

قلبُـ ـكَ ينـ ـبضْ حنانـ ـاً حتى هِـ ـنْ فـوق الصـليبِ
يـ ـدُكَ تجـ ـرحْ وتعصـ ـبْ أنـ ـتَ إلهـ ـي الحبيـ ـبِ

يا امرأة، هوذا ابنك

من الرب نتعلم أنه لا ينبغي أن نجعل العلاقات العائلية تتداخل في خدماتنا الروحية مهما صغرت، كما أنه لا يجوز أن نجعل مهامنا الروحية، مهما عظمت، تنسينا الاهتمام الواجب علينا بالأمور العائلية.

«فلما رأي يسوع أمه، والتلميذ الذي كـان يحبـه واقفاً، قال لأمه: يا امرأة، هـوذا ابنـك». يتسـاءل البعض: لماذا خاطب المسيح المطوبة مريم بالقول «يا امرأة» ولم يقل لها "يا أماه"؟

وبداية يؤكد العارفون باللغة وباسـتخداماتها أنـه ليس في كلمة امرأة في الأصل اليوناني مـا يفيـد أي عدم احترام، بل إنها تعنى حرفياً «يا سـيدة». لكـن يظل السؤال: لماذا لم يقل لها: "يا أماه"؟!

هذا السؤال الطبيعي شد المفسرين كي ما يُـدلي كل واحد منهم بدلوه ويقول رأيه.

قال بعضهم: إن كلمة "يا أماه" في ذلـك الوقـت العصيب كانت ستزيد جرح قلب المطوبة مريم، فتحاشى الرب أن ينطق بها واسـتخدم بـدلها كلمة «يا امرأة»، أو يا سيدة.

وقال آخرون: إن المسيح وهو على الصليب كان مصلوباً باعتباره نسل المرأة المُتنبأ عنه في الجنة بأنه «يسحق رأس الحية» (تك٣:١٥). لهذا خاطب أمه بالقول: «يا امرأة»، ليؤكـد على أنه هو «نسل المرأة».

وقال فريق ثالث: إن بين ما ورد في أول إنجيل يوحنا وما ورد في آخره علاقة. ففـي يوحنا ٢ قال الرب لأمه في عُرس قانا الجليل: «ما لي ولك يا امرأة؟ لم تأتِ ساعتي بعـد». وهنا في آخِر الإنجيل قال لها «يا امرأة، هوذا ابنك». كلا التعبيرين ورد في إنجيـل يوحنـا الذي يحدثنا عن لاهوت المسيح باعتباره الكلمة الأزلي، ابن الله الوحيد.

لكن في هذين التعبيرين، اللذين ورد أحدهما في بداية خدمة الرب والآخـر فـي نهايـة

خدمته، نرى الكمال العجيب (وهو ما ميز المسيح دائماً) في كيفية التوفيق بين المهام الروحية والأمور العائلية، أو بالأحرى العلاقة بالله وأموره، والعلاقة بالأهل وشؤونهم. ففي عُرس قانا الجليل، عندما أرادت المطوبة مريم أن توجه الرب في خدمته، لم يسمح لها، وقال لها بكل وضوح: «ما لي ولك يا امرأة؟». فمؤدّى قوله: "صحيح أن المسألة التي طلبتِ مني التدخل فيها هي أمر عادي «ليس لهم خمر»، لكن ما دامت تمسّ خدمتي التي بها أخدم الآب وحده، فما لي ولكِ؟" أما الآن وهو على الصليب، وهو يقوم بأعظم عمل في التاريخ، بل أعظم من خَلق السماء والأرض، فإنه لا ينسى أن ينشغل بأمه، ويرتب أمورها قبل رحيله فيقول لها «يا امرأة، هوذا ابنك».

من هذا نتعلم أنه لا ينبغي أن نجعل العلاقات العائلية تتداخل في خدماتنا الروحية مهما صغرت، كما أنه لا يجوز أن نجعل مهامنا الروحية، مهما عظمت، تنسينا الاهتمام الواجب علينا بالأمور العائلية.

وقال فريق رابع في تعليل استخدام الرب للتعبير «يا امرأة»: إن المسيح لما أتى إلى الأرض، أخذ - له المجد - علاقات طبيعية كالتي لنا نحن تماماً. لكن الموت والصليب وضعا نهاية لهذه العلاقات الطبيعية، كقول الرسول «نحن من الآن لا نعرف أحداً حسب الجسد، وإن كنا قد عرفنا المسيح حسب الجسد لكن الآن لا نعرفه بعد. إذاً إن كان أحد في المسيح فهو خليقة جديدة: الأشياء العتيقة قد مضت، هوذا الكل قد صار جديداً» (٢كو٥: ١٦،١٧). وكما أنهى الصليب العلاقات الطبيعية الجسدية، فإن القيامة وحلول الروح القدس يوم الخمسين أسسا لنا مع المسيح علاقة جديدة لن تنفصم أبداً. بالقيامة ارتبطنا بالمسيح بصورة أمجد، فصرنا روحاً واحداً، وصرنا أعضاء جسمه من لحمه ومن عظامه.

وبالنسبة للمطوبة مريم، فمع أننا نرجح أن المسيح ظهر لها، كما ظهر للتلاميذ بعد القيامة «الذين أراهم نفسه حياً ببراهين كثيرة، بعد ما تألم، وهو يظهر لهم أربعين يوماً» (أع١: ٣)، فإنه التقاها على أرضية جديدة. وكأن الرب هنا في كلمات استيداعه أمه لعناية يوحنا كان يُهيئها للنقلة من علاقتها الطبيعية بيسوع، إلى علاقتها الروحية بالمسيح!

ولنا نحن في هذا درس وسند. فكم نحسّ بالخسارة عندما يرقد بعض ممن كانت لنا بهم ارتباطات عائلية خاصة وقوية. ونحن نعلم أن هذه العلاقة لن تكون في السماء كما كانت على الأرض، ولا يمكن أن تكون، لكن كاهننا العظيم، ربنا يسوع، اختبر أيضاً، من فوق الصليب، هذا النوع من الحزن والألم، ولهذا فهو يقدر أن يرثي لنا في هذا أيضاً، كما في كل شيء

آخَر.

تكليف وتشريف

يقول الوحي عن المسيح: «ثم قال للتلميذ: هوذا أمك. ومن تلك الساعة أخذها التلميذ إلى خاصته». ومع تقديرنا كل التقدير للمطوّبة مريم، لكن يؤسفنا أن البشر أضفَوا عليها ما لا نجد له أدنى سند في كلمة الله، فهي ليست كما يزعم البعض "حامية الكنيسة، ومُعينة البشرية". فالوحي هنا يخبرنا أنه «من تلك الساعة أخذها التلميذ إلى خاصته». ومن هذا نفهم أنها كانت محتاجة إلى رعاية رجل يتولى الاهتمام بشؤونها، فيوحنا هو الذي أخذ المطوّبة مريم لعنايته، وليست هي التي أخذت يوحنا لعنايتها. وهي إن كانت تحتاج لعناية غيرها من جهة الزمان، فكيف تُعين غيرها من جهة الأبدية؟!

ثم قال للتلميذ: «هوذا أمك». وهذه بكل يقين دلالة ثقة كبيرة، أن يستودع المسيح أمه ليوحنا ليعتني بها. ونحن لا نتعب كثيراً لنعرف لماذا اختص الرب يوحنا بهذا الأمر دون الباقين، إذ يقول الوحي هنا عنه إنه التلميذ الذي كان يسوع يحبه. فالمحبة تؤتَمَن على أعظم الودائع، وتُكلف بأعظم الأعمال. والمحبة من الجانب الآخر تُسرّ أن تَخدِم. ومَنْ فينا يشك لحظةً أن يوحنا، عندما قبل هذه المأمورية، اعتبر الأمر تشريفاً من الرب لا تكليفاً؟

ولنا في هذا أيضاً درس. فهل عَهد الرب إليك الاعتناء ببعض من أقربائك؛ أرامل كانوا أم أيتاماً؟ لا تعتبر ذلك عبئاً ثقيلاً بل اعتبره شرفاً نبيلاً. صحيح أن هؤلاء لن يكونوا على مستوى تقديرنا للمطوبة مريم، لكن اسمع ما سيقوله الملك للذين عن يمينه من الذين اعتنوا وأطعموا وزاروا المضطهدين الأذلاء في فترة الضيقة العظيمة: «بما أنكم فعلتموه بأحد اخوتي هؤلاء الأصاغر **فبي** فعلتم» (مت٢٥:٣٥-٤٠).

يعتقد بعضهم أن يوحنا كان قريباً للمسيح حسب الجسد. لكن ليس لهذا السبب استودعه الرب أمه ليعتني بها. فهناك آخرون - على أي حال - كانوا أكثر قرباً للرب من يوحنا، هم

الذين يقول عنهم الوحي «أخوة الرب*». كلا، ليس لمجرد القرابة الجسدية، بـل لأنـه كـان أقرب التلاميذ إلى قلب السيد. فهو الذي كان يتخذ مكانه في حضـن يسـوع، ويتكـئ علـى صدره. نعم، إن المحبة هي التي يُشرفها الرب بأعظم الأعمال وأمجدها!

وقد يقول قائل: لكن أ لم يشكّ يوحنا في المسيح كباقي التلاميذ الذين قـال لهـم الـرب «كلكم تشكّون في في هذه الليلة» (مت٢٦: ٣١)؟ أ ولم يهرب مع باقي التلاميذ لحظة القـبض على سيدنا كقول الوحي «حينئذٍ تركه التلاميذ كلهم وهربـوا» (مـت٢٦: ٥٦)؟ نعـم، هـذا صحيح. لكن يوحنا الذي جبن وهرب، عاد من جديـد ليقف إلى جوار المريمـات الحزينـات عنـد جـذع الصليب. والرب لم يوبّخه على ضعفه، ولـم يعاتبـه على جبنه، بل بلطفه الغامر، وحبه الغافر، كلفه هـذا التكليف العظيم، بل شرفه بهذا الشرف الكبير.

> المحبة تـؤتَمَن علـى أعظم الودائـع، وتُكلَّـف بـأعظم الأعمال. والمحبة من الجانب الآخر تُسرّ أن تَخدِم.

هل قصر أحدنا أو ضَعُف؟ هل جَبُن واحد منا أو فشل؟ إننا إن عدنا إليه الآن فسنرى أنـه مـا زال يحبنا كالأول. بل ربما ينتظرنا عمل وخدمـة أعظـم مما عملناه في كل ما سبق من حياتنا. إنه إله كل نعمة الذي أظهر النعمة تجاه صالبيه، أ فـلا يظهرها بالأولى جداً نحو تلاميذه؟ فمهما كان ضعفك أو فشلك، فعُدْ إليه، إنه صفوح غافر!

* يعتقد بعضهم أن سر استيداع الرب أمه ليوحنا، وليس لإخوته حسب الجسد هو أنهم حتى ذلك الوقت لم يكونـوا يؤمنون به (يو٧: ٥). ولقد كان هذا مذيباً لقلوبهم، قادهم إلى الإيمان به. ولهذا فقد ظهر الرب بعد قيامته مـن الأموات ليعقوب أخي الرب (١كو١٥: ٧)، فصار واحداً من الرسل (غل١: ١٩).

كلمات التعزية

وكان واحد من المذنبين المعلقين يجدِّف عليه قائلاً: إن كنت أنت المسيح، فخلّص نفسك وإيّانا! فأجاب الآخَر وانتهره قائلاً: أ وَلا أنت تخاف الله، إذ أنت تحت هذا الحكم بعينه؟ أ ما نحن فبعدل، لأننا ننال استحقاق ما فعلنا، وأما هذا فلم يفعل شيئاً ليس في محله. ثم قال ليسوع: اذكرني يا رب متى جئتَ في ملكوتك. فقال له يسوع:

الْحَقَّ أَقُولُ لَكَ:

إِنَّكَ الْيَوْمَ تَكُونُ مَعِي فِي الْفِرْدَوْسِ

(لو٢٣:٣٩-٤٣)

هذه الأقوال العجيبة التي انفرد بذكرها لوقا البشير، والتي تحدثنا عـن خـلاص اللـص التائب، تستحق أن تُكتب بماء الذهب، لأن أعداداً لا تُحصَى من المفديين مدينون لها بسـعادتهم الأبدية. فهي تصور لنا بصورة منقطعة النظير قوة المسيح في الخلاص، واستعداده المطلـق في قبول كل من يقبل إليه. ونلاحظ أن إنجيل لوقا في بدايته ينفرد أيضاً بـذكر أول موعظـة للمسيح، قالها في مجمع الناصرة، فتعجبت الجموع من كلمات النعمة الخارجة من فمه (لـو٤: ١٦-٢٢). وما زال - تبارك اسمه - حتى آخر لحظة له على الأرض هـو هـو، الممتلـئ بالنعمة. وهنا في هذه الكلمة الثالثة ما زلنا نندهش من كلمات النعمة التي ردّ بها علـى ذلـك اللص، وترحيب النعمة في قبول شخص كهذا.

يسوع وسط المذنبين!

ونريد في البداية أن نتأمل في الموضع الذي صُلِب فيه المسيح. يذكر لنا مرقس البشـير «صلبوا معه لصين، واحداً عن يمينه وآخَر عن يساره، فتم الكتـاب القائـل: "وأُحصِـيَ مـع أثمة"». والأرجح أن البشر الأشرار أرادوا الإمعان في تحقير المسيح فصلبوه بين لصين عـن يمينه وعن يساره، فاللصان، نظراً لتشابه جريمتهما، بل وربما لاشتراكهما في الجريمة ذاتهـا، كان المفروض أن يُصلبا بعضهما بجوار بعض، وأن يُصلب المسيح في مكان منفصل، فتهمته التي لفقوها ضده هي تهمة مختلفة تماماً، لا علاقة لها بالسرقة من قريب ولا من بعيـد، إلا أن الناس الأشرار قصدوا التشهير بالمسيح، فصلبوه وسط اثنين من اللصوص. لكن أكـان هـذا مجرد صدفة؟ أكان هو مجرد تصرف أخرق من جانب البشر الحاقدين؟ وإذا كنا نـؤمن أن

وراء كل كبيرة وصغيرة من أمورنا إله عظيم دقيق، فهل يمكن أن يكون صلب المسيح في هذا المكان هو مجرد صدفة؟ كلا، فالأمر أعظم من ذلك بكثير!

فأولاً: كان صلب المسيح في ذلك المكان إتماماً للنبوة التي قالها إشعياء عن المسيح قبـل صلبة بنحو سبع مائة عام «وأُحصِيَ مع أثمة» (إش٥٣: ١٢). هذا ما أكده مرقس في إنجيلـه (مر١٥: ٢٨).

ثانياً: هناك هدف آخر، وهو أن يكون المسيح قريباً من الذين أتى ليخلّصهم، ومضى إلى الصليب ليموت نيابة عنهم. ولقد كان صلب المسيح بين المذنبين بركة لأحـدهما، إذ خَلُـصَ واحد منهما بالفعل في آخِر لحظة. ويا لها من صورة معبرة ترسمها لنا ريشة الطبيب الحبيب لوقا، فإن خاطئاً تائباً لن يكون بعيداً البتة عن المخاص المنعم!

تبارك اسمك يا ربنا: في ولادتك أحاطت بك البهائم، ثم في موتك نراك وقد أحـاط بـك الذين لفظتهم البشرية. فأنت المخاص الذي لا نظير لتواضعك. أظهرت تواضعك العظيم فـي ولادتك، وخلاصك العظيم في موتك.

يخبرنا البشيران متى ومرقس أن اللصين في البداية اشتركا معـاً فـي تعييـر المسـيح (مت٢٧: ٤٤؛ مر١٥: ٣٢). لكن بعد ذلك حدث اختلاف بين اللصين فأحدهما واصل تعييـره للمسيح، والآخَر لمس روح الله قلبه وتبدل مسيره وتغير مصيره. وبعد ساعات فصلت أحدهما عن الآخر هوة عظيمة أُثبِتت، لا لسبب إلا لأن أحدهما آمن بالمخاص فخَلُصَ، والآخر رفـض فرُفِض.

وهذه الحادثة تحكي لنا قصة الفداء موجزة مركزة. فها المخلّص الفادي على الصـليب، وبجواره إنسان خاطئ تاب وآمن فخلُص، وفي المقابل خاطئ آخر احتقـر ورفـض فهلـك. كلاهما كان له الماضي الأثيم نفسه، وينطبق عليهما قول الكتاب «لأنـه لا فـرق، إذ الجميـع أخطأوا وأعوزهم مجد الله» (رو٣: ٢٢، ٢٣). لكن ليس ذلك فقط، بل كان كلاهما علـى بُعـدٍ متساوٍ من المخاص، وكانا تحت الظروف عينها، وكلاهما شاهد مشهد الصـليب المـؤثر فـي الوقت عينه، لكن واحداً تأثر وتغير وتبرر، وبقى الآخر كما كان. هل هذا عجيب؟ ألا نقـرأ عن أول أخوين: أن هابيل تبرر وخاص، وأما قايين فهلك؟ وهنا واحد من اللصـين خلـص،

والآخر هلك*.

إذاً لقد قسم المسيح وهو على الصليب الأوسط العالم إلى فريقين. وهكـذا هـي الحـال دائماً: فقد وُضِعَ المسيح لسقوط وقيام كثيرين (لو٢:٣٤)، والبشارة بالصـليب هـي للهـالكين جهالة وأما عندنا نحن المخلصين فهي قوة الله (١كو١:١٨)، وأخبار الإنجيل هي لأناسٍ رائحة حياة لحياة وللآخرين رائحة موت لموت (٢كو٢:١٦). ولا نجد تفسيراً لكل هذا سوى مطلـق سلطان الله.

لقد اشترك اللصان في البداية – كما ذكرنا - في تعيير المسيح، مقلّدين في ذلك رؤسـاء الكهنـة والكتبـة. ومـا أتعـس الحالـة التـي تـردى فيهـا هـذان اللصـان

وهما على شفا الأبدية، وما أتعسهما وهما يهدران بكلمات التعيير ضد المتألم القـدوس وهـو يقاسي آلامهما وعارهما بالذات. وقد يبدو غريباً أن اللصين كانا يعيران المسيح، فربمـا لـم يرياه من قبل، وهو بالتأكيد لم يعمل لهما أي شيء يسيء إليهما، فلمـاذا يكرهانـه؟ ولمـاذا أبغضه باقي البشر؟ بل لماذا تتكرر الصورة نفسها في هذه الأيـام فـيمن يكرهـون المسـيح وأتباعه؟ لماذا؟ الواقع أن ليس لكل ذلك سبب إلا ما قاله المسيح «أبغضـوني بـلا سـبب» (يو١٥:٢٥).

صورة لي ولك

لكن دعنا نتحول إلى أنفسنا. فهذان اللصان هما صورة لنا كلنا، إذ يقول الوحي «وأنـتم الذين كنتم قبلاً أجنبيين وأعداء في الفكر، في الأعمال الشريرة، قد صـالحكم الآن فـي جسـم بشريته بالموت» (كو١: ٢١،٢٢)، وأيضاً «لأنه إن كنا ونحن أعداء قد صولحنا مع الله بمـوت ابنه» (رو٥: ١٠).

* إن كانت كلمات الترفق السابقة التي قالها لكل من المطوبة مريم وتلميذه يوحنا قد ربطتهما معاً، كما يحب المسيح أن يفعل أيضاً مع قديسيه جميعاً (يو١١:٥٢)، فإن كلمات التعزية التي قالهـا هنا للّص التائب، قد فصلته أدبياً وأبدياً عن زميله الذي كان رفيقه طول العمر!

هل أسمع واحداً يعترض على هذا التشبيه ويقول: "أنا لست لصّاً، ولذلك فهـذا اللـص لا يشبهني ولا أنا أشبهه"؟ صديقي، أقول لك بإخلاص إن حالتك أسوأ بكثير مما تظن، والإنسان الطبيعي وهو في حالته الطبيعية هو لص من أسوإ أنواع اللصوص إذ أنه لا يسرق الناس بـل الله (انظر ملا٣:٨). أ وَلا يقرر الكتاب المقدس أن الإنسان قصر في تمجيد الله وأنـه تعـدى اعتبارات مجده؟ ذكر أحدهم هذا المثل: هَبْ أن إنساناً كان يعمل في شركة معينـة باعتبـاره ممثلاً لها في بلد معين، وكانت الشركة ترسل له راتباً شهرياً مجزياً إزاء خدمته لها، وكان هو يصرف هذا الراتب فيما يعمل طول الوقت لمصـلحة شركة منافسة. أخبرني، ألا يُعتبر هذا الوكيل لصّـاً؟ والآن ألا ترى معي المشابهة بين هذا الوكيل والإنسان عموماً؟ لقد أعطانا الله الصحة والقوة «لأننا به نحيـا ونتحرك ونوجد» (أع١٧:٢٨)، لكننا بدل من أن نمجد الله قمنا بخدمة عـدوه: خـدمنا الشـيطان، وخـدمنا الشهوات والخطايا، وعملنا كل ما يغضب الله بـالفكر والقول والعمل. فكيف نستكثر علـى أنفسـنا تهمـة السرقة؟

> تأمـل معـي في نعمـة الله مـع هـذا اللـص: إنـه في الصـباح كان مجرماً في السـجن محكوماً عليـه بالصـلب، وقبـل الظهـر صـار مخلّصاً بالنعمـة، وقبـل الغروب غدا في الفردوس.

إذاً فهذا اللص الذي نتأمل قصته يمثل العداء نحو الله وتعدي حقه. لكن هناك شيئاً آخـر يمثلـه ذلـك اللص: إنه يمثل العجز الكلي. نعم، ماذا كان بوسع لص قاتل، مُسـمر اليـدين والقـدمين، أن يعمل ليخلص نفسه أو يرضي خالقه؟ لقد كان على شفا الموت، وما تبقى له من العمر يجعلـه من العسير جداً عليه أن يعمل أي شيء، ووضعه الذي كان فيه يجعل من المستحيل عليه تماماً أن يفعل أي شيء. لكن خلاص الله لا يحتاج إلى وقت ولا إلى عمل. فيا لنعمة الله التي بغير حدود والتي تخلص شخصاً فاجراً عاجزاً كهذا اللص المصلوب! ويا لخلاص المسيح المُقـدم لجميع البشر، ولأردإ البشر، كقوله الكريم «مَنْ يُقْبِل إلي لا أخرجه خارجاً» (يو ٦:٣٧).

تأمل معي - عزيزي القارئ - في نعمة الله مع هذا اللص: إنه في الصباح كان مجرمـاً في السجن محكوماً عليه بالصلب، وقبل الظهر صار مخلصاً بالنعمة، وقبل الغروب غـدا فـي الفردوس. من كان يتخيل هذا ممن كانوا ينظرون إلى ذلك اللص على الصليب في صباح ذلك

اليوم: أنه بعد ساعات معدودة سيكون في الفردوس مع رب المجد؟!

خلاص في أسوإ الظروف

لكنى أريد الآن - بنعمة الرب - أن أركز النظر على الظروف التي فيهـا خلـص ذلـك اللص. فهذا اللص التائب الذي خلّصته نعمة الله هو نجم ساطع في حلكة ليل الشر، يرشد الـذين يبتغون ضياء الراحة وسط بحر العواصف وأمواجه المتلاطمة. ما أروع تلـك القصـة التـي تصور لنا نعمة الله الكاملة وخلاصه الأبدي المجاني لنفس الأثيم الجاني! وما أعجب أن يحـدث ميلاد لنفس إنسان في مثل هذا المهد: الصليب! لكن حقاً «غير المستطاع عند النـاس مُسـتطاع عند الله» (لو١٨: ٢٧). إن هذا اللص التائب التقى الرب في أسوإ وقت وأسوإ مكان - بحسـب النظرة البشرية - بالنسبة لكليهما، ومع ذلك فقد خلص.

فبالنسبة للمسيح، وصل إلى أدنى صور الاتضاع إذ كان «لا صورة له ولا جمـال فننظـر إليه ولا منظر فنشتهيه، محتَقَر ومخذول من الناس» (إش٥٣: ٢،٣). كان يبدو كأنـه لا يقـوى على أن يُخلص نفسه، فكيف يُخلص غيره؟ كان في مشهد رفض واحتقار مـن جمـوع الأمـة وقادتها، فكيف لمجرم خارج عن القانون أن يؤمن به؟ كان لأعدائه اليد الطولى، فيما المؤمنـون به تخاذل إيمانهم وفرّوا جميعاً، فكيف يؤمن به شخص لم يكن قد سبق له الإيمان؟ كان مُسـمر اليدين متروكاً من أحبائه، فكيف لمن لم تسبق له معرفة به أن يعترف به؟ كان منزوع الثيـاب، مُحصًى مع أثمة، فكيف يكون هو الملك وكيف يكون هو الرب؟ لكن، يا للعجـب! إننـا هنـا نقتبس كلمات كلفن عندما قال: "لقد رأى ذلك اللص في مشهد الموت حياة، وفي الأطلال جـلالاً، وفي الخزي مجداً، وفي الهزيمة نصرة، وفي الرُبط سلطاناً، وفي الصليب عرشاً، وفـي إكليـل الشوك تاجاً". وإن المرء ليتساءل: "تُرَى هل ارتقى إيمان منذ بدء الخليقة مثل إيمان هذا اللص التائب؟!" لقد خذلتْ المسيحَ أُمَتُه، وقد خانه تلميذه، وهرب الباقون جميعاً، وها هو يُقطَع ولـيس له شيء على الإطلاق (دا٩: ٢٦). لكن كان هناك شخص آمن به ورأى مجده، بل اعترف بـه جهراً. وبينما المسيح مُعلق على الصليب قال له: «اذكرني يا رب متى جئتَ في ملكوتك»! لقد وجد المسيح في ذلك اللص، في تلك الساعات العصيبة، باكورة ناضجة شهية من تعـب نفسـه. أليس لأجل أمثال هذا اللص احتمل المسيحُ الصليبَ مُستهيناً بالخزي؟

نعم، نحن لا نقدر سوى أن نقول إن خلاص هذا اللص في هذه الظروف هو معجـزة مـن

معجزات النعمة. إنه شعلة منتشلة من النار. لكننا نستدرك سريعاً فنقول: بـل إن كـل إيمـان بالمسيح في أي زمان وأي مكان هو معجزة، فالإنسان الطبيعي لا يقبل ما لـروح الله لأن ذلـك بالنسبة له جهالة. أفليس عجيباً أن لصّاً مرائياً عاش مع المسيح ثلاث سنين ونصف خنق نفسـه في ذلك اليوم وذهب إلى مكانه، لكن لصّاً آخر رتبت النعمة أن يلتقي الرب في آخِـر لحظـات عمره فخلّصه المسيح، ومضى في ذلك اليوم نفسه ليكون معه في الفردوس؟!

إنك إذا رأيت شخصاً معادياً لله يعيش لِلذاته ولَذاته فهو شخص طبيعي، وهو الـذي عمـل نفسه هكذا. أما إذا رأيت مؤمناً حقيقياً بالمسيح، يملأ خوف الله قلبه، فهذا بكل يقين ثمرة النعمـة المُخلصة، كقول الكتاب: «وأما كل الذين قبلـوه فأعطـاهم سـلطاناً أن يصـيروا أولاد الله، أي المؤمنون باسمه. الذين وُلِدُوا ليس من دم، ولا من مشيئة جسد، ولا من مشيئة رجل، بـل مـن الله» (يو١٢:١،١٣).

لكن ليس فقط من جانب المسيح، بل أيضاً من جانب اللص كانت الظـروف أسـوأ مـا تكون. فقد كان اللص في آلام رهيبة، هي آلام الصليب، فهل هذا وقت مناسب للإيمان؟ على أن هذا - ويا للعجب - هو ما كان! لذلك إن وصلت هذه الكلمات إلى شخص علـى سـرير المرض أو حتى فراش الموت، فإنّ الذي خلّص اللص وسط آلامه الرهيبة قـادر أن يُخلصـك أنت أيضاً.

خلص وهو على حافة الموت!

نحن لا نعرف على وجه التحديد ما الذي أثر في هذا اللص وأحدث فيـه هـذا التغييـر العجيب؟ ألأن المسيح في أثناء عملية الصلب الأليمة لم يُبدِ أيّ احتجاج ولـم يصـدر عنـه صراخ صياح أو استنكار؟ أم أن صلاة المسيح لأجل قاتليه طالباً الغفران لصالبيه قـد أثّـرت فيه؟ نعم، نحن لا نعرف على وجه التحديد هل كان ذلك أو غيـره، فـالرب عنـدما أراد أن يشرح كيفية حدوث التغيير في قلب الإنسان قال «الريح تهُب حيث تشـاء، وتسـمع صـوتها، لكنك لا تعلم من أين تأتي ولا إلى أين تذهب. هكذا كل مَنْ وُلِدَ من الروح» (يو٨:٣).

نعم، إن عمل الله هو وحده الذي ظهر هنا، فلا عمل من جانب البشر ظهر في خلاص ذلك اللص. لقد قال يونان، وهو في بطن الحوت: «للرب الخلاص» (يون٩:٢). نعم، فمَـنْ كـان

بوسعه أن يُخلص يونان من بطن الحوت سوى الرب؟ ومَنْ بوسعه أن يخلص أي خـاطئ مـن خطاياه سوى الرب؟ لذا فقد قصد الله أن يخلص هذا اللص التائب في أسوإ الظروف من الناحية الإنسانية، حتى لا يفتكر واحد أنّ للإنسان دخلاً في خلاص أي إنسان. دعنا إذاً لا نركـز علـى الوسائل المستخدمة في التبشير، فلقد استحسن الله أن يخلص المـؤمنين بجهالـة (أي ببسـاطة الكرازة. إن الخلاص ليس هو عمل الإنسان الذي يمكنك أن تفهمه وتتبعه، بل هـو عمـل روح اللّه الذي يفوق العقل والتصور.

إن هذه الحادثة العجيبة التي نتأملها الآن تفتح أمامنا الفرصة لأن نقُدم بشارة الإنجيل لأي شخص، ولو كان على حافة الموت. وكم نشـكر الله لأن إنجيل الله، هذا الإنجيل الذي تأسس علـى مـوت المسيح لأجلنا، قدم الخلاص المجاني للـص الجـاني، وهو على حافة الأبدية، وهو قِبلَه فعـلاً. لا تسـتكثر خطاياك إذاً على نعمة الله أيها القارئ العزيز. ومهما كانت تلك الخطايا، مهما ارتفعت جبالاً فوق التصـور والخيال فإنه «حيث كثرت الخطية ازدادت النعمة جداً» (رو٥: ٢٠)، «ودم يسوع المسيح ابنه يطهرنا من كـل خطية» (١يو١: ٧).

> هذه الحادثة العجيبة تدعونا لأن نقـُدِّم بشارة الإنجيل لأي شخص، ولو كان على حافة الموت. فإن إنجيل الله، هذا الذي تأسس على موت المسيح لأجلنا، قدَّم الخلاص المجاني للص الجاني، وهو على حافة الأبدية، وهو قَبِلَه.

إن ذلك اللص لم يكن له أي رصيد من الأعمـال الصالحة قبل توبته، ولا بعدها. فهو مجرمٌ عـاتٍ، لا خاطئ عاديّ. لقد كسـر القـوانين البشـرية، وروع الناس بأعماله الإجراميـة، وسـفك الـدماء الزكيـة، فاستحق عدلاً تلك الميتة البشعة. لقد كان الحكم بالصلب حكماً عادلاً باعترافه هو. نعـم، لـم يكن لهذا اللص غير التوبة والإيمان، لا أكثر ولا أقل. إن كلمات المسيح العجيبة التـي قالهـا في حياته «مَنْ يُقبِل إلي لا أخرجه خارجاً» (يو٦: ٣٧)، هذه الكلمات قد وُضِـعَت هنـا تحـت الامتحان في هذه الحادثة، فتبين أنها ذهب خالص، وفضة ممحوصة سبع مرات (مز١٢: ٦).

والآن هل أسمع واحداً يقول: "لقد عشت عمري كله في الخطايا والآثام، فكيـف يقبلنـي المسيح وأنا في هذه الحالة ؟" عزيزي، إن هذه الحادثة العجيبة تفتح أمامـك بـاب الرجـاء.

اركن تماماً إلى وعد المسيح «مَنْ يُقبِل إلي لا أخرجه خارجاً». حتى لو كنتَ قد عشت حتى هذه اللحظة حياة خالية من أي صور التقوى ومظاهرها، فإنك إن آمنت الآن أن يسوع هو ابن الله الذي أتى إلى العالم ليخلص الخطاة، ليخلصَك أنت، وإن اعترفت بخطاياك له، ووضعت كل ثقتك فيه، فإنه سيُخلصك فوراً.

نحن نؤمن أنْ في لحظة واحدة يمكن أن تُغفَر جميع الشرور والخطايا التي ارتكبتها في عمرك الفائت كله، والطبيعة القديمة التي صارت متمكنة في نفسك ممكن أن تتلقى ضربتها القاضية في اللحظة ذاتها التي فيها تتحول إلى المسيح بالإيمان.

لقد كان ذلك اللص يقدر أن يقول بحق «إنما كخطوة بيني وبين الموت». وهل الشخص الذي ينتظر الموت، بل الذي يموت فعلاً، بوسعه أن يخلُص أبدياً؟ نعم، لقد خلصه المسيح، وهو مستعد أن يفعل الشيء نفسه معك أنت أيضاً. لقد قيل عن الرب في إنجيل لوقا «هذا يقبل خطاة» (لو١٥: ٢)، وها المسيح، في الإنجيل ذاته، يقبل ذلك اللص الأثيم. فما الذي يمنعك أنت أن تخلص؟

لكن قد يقول قائل: قد خلص هذا اللص في آخر لحظة، ولهذا سأؤجل خلاصي أنا أيضاً إلى ما قبل الموت بساعات. لكني أقول لمثل هذا الشخص: لا تُحزن قلب المسيح الودود بمثل هذه الأفكار الشيطانية، ولا تُحزن روح الله القدوس، الذي يجاهد معك، بمثل هذه الأقوال. ثم أيضاً لا تُقامر بحياتك، فهل تضمن أنت متى وأين وكيف ستكون ساعتك الأخيرة؟ لماذا لا تستعد الآن؟ ولماذا تترك أهم أمر في حياتك إلى آخر لحظة؟ إنك بكل يقين أقرب إلى الأبدية مما تظن. ثم لماذا تقسّي قلبك؟ فأنت عندما تسمع صوت النعمة وتؤجل، تقسّي قلبك بنفسك. فعلى الجانب الآخر من صليب المسيح نرى صورة رهيبة من قساوة القلب ممثلة في اللص الهالك. فهو في الحديد ولا يلين! في أتون النار وقلبه لا يذوب! على بعد أشبار من المخلص ويموت مجدفاً وبلا رجاء! ويقول سليمان الحكيم: «الكثير التوبيخ المُقسّي عنقه، بغتة يُكسر ولا شفاء» (أم٢٩: ١).

قيل إن لصاً واحداً قد خلص من فوق الصليب في آخر لحظات عمره حتى لا ييأس أي إنسان مهما كان وضعه، لكن واحداً فقط هو الذي خلص فيما الآخر هلك، حتى لا يؤجل أحد أمر خلاصه إذ قد تضيع منه الفرصة إلى الأبد.

كيف خلص اللص؟

لقد رأينا أن هذا اللص، حتى بعد ما صُلِبَ، كان يُعير الرب، كزميله تماماً، لكن بعد ذلك حدث التغيير العجيب في قلبه، إذ تاب وآمن فخاص، والرب قبله هكذا سريعاً. فليست أيام السجن هي التي قادته للتوبة، ثم جاءت اللحظة التي خلُص فيها وهو على الصليب، بل بسرعة انتقل من الظلمة إلى النور، ومن الموت إلى الحياة.

وما الذي قاله هذا اللص التائب للمسيح؟ لقد قال له: «اذكرني يا رب متى جئتَ في ملكوتك». ونحن لا ندري عن يقين من أين عرف ذلك اللص مسألة مُلك المسيح: هل هي تلك اللافتة التي وضعها بيلاطس كعنوان علته فوق رأسه على الصليب كنوع من التهكم؟ ربما يكون ذلك كذلك، فنحن نعرف أنه حتى غضب الإنسان يحمد الله، كما يقول المرنم في المزمور ٧٦: ١٠. والله قادر أن يرسل سهماً مستقيماً بقوس معوجة. وروح الله يقدر أن يستخدم أي شيء ليقود النفوس للخلاص. والواقع إننا نعجب كثيراً بمشهدين تجلت فيهما بصيرة الإيمان النافذة بصورة تدعو للعجب. المشهد الأول عندما أتى المجوس من المشرق ليسجدوا للملك العظيم المولود، لكنهم لم يروا طفلاً تحوطه هالات المجد الأرضي ويقيم في قصر عظيم، بل رأوا مولوداً متواضعاً في حضن امرأة بسيطة، في مكان بسيط. لكن إيمانهم اخترق حجاب الاتضاع ورأوا عظمة شخصه، فخرّوا وسجدوا له، وقدّموا له هداياهم: ذهباً ولباناً ومُرّاً. وأما المشهد الثاني فهو مشهد اللص التائب فوق الصليب، والإيمان هنا أروع وأعجب، فهو لم يرَ مجرد طفل تحمله الأيدي، بل رأى شخصاً مرفوضاً معلقاً على صليب العار. لكن اللص رأى في ذلك المصلوب مسيح الله والملك الآتي عن قريب في ملكوته*.

* لقد كانت كلمات ذلك اللص للمسيح تمثل كلمات الاحترام الوحيدة التي وصلت آذان الرب بعد ساعات طويلة فيها سمع المسيح من كلمات الهزء والتعيير والشتيمة ما يجل عن الحصر.

ثم تأمل في كلمات اللص التائب من زاوية أخرى. لقد قال له «اذكرني يـا رب متـى جئتَ في ملكوتك»، وهي كلمات جمعت بين البساطة والتواضع. فهو لم يقل له "أكرمني"، كما طلب شاول الملك من صموئيل (١صم١٥: ٣٠)، ولا قال لـه أيضـاً: "اغفـر لـي خطايـاي وسامحني بأفعالي وارحمني". بل كل ما جرؤ على التطلع إليه هو أنه عندما يأتي الرب يسوع في ملكوته فليذكره. لقد قال «اذكرني»: وهو تعبيـر يشتمل على كل ما سبق، لكنه يشتمل في المقـام الأول على ثقة بالمخلص. إنه لا يطلب أكثر من أن يـذكره المسيح، ويترك للمسيح اختيار الأسلوب الذي يـذكره به. نعم، لقد وثق به تماماً وركن إليه.

> عنـدما سـأل هـيرودس الملـك المسـيحَ لم يُجِبـه بشـيء، ولا أجاب بيلاطس. بل بعدما عُلِّق علـى الصـليب أيضـاً، لم يـرُدّ علـى تعـيير رؤسـاء الكهنـة ولا تجديف المجتـازين. لكنـه أجاب نداء ذلك اللص، وصرخة ذلك الخاطئ المستغيث.

ونحن نعرف أن المسيح، في صباح ذلك اليـوم، عندما سأله هيرودس الملك بكلام كثير لم يُجِبه بشيء، ولما سأله بيلاطس لم يُجِبه ولا عن كلمة واحدة حتـى تعجب الوالي جداً. بل بعدما عُلِّق على الصليب أيضاً، عندما عيره رؤساء الكهنة وجدف عليه المجتازون لـم يرُدّ على تعييرهم وتجديفهم. لكنه أجاب نـداء ذلـك اللص، وصرخة ذلك الخاطئ المستغيث. لقد وصـل نداء ذلك اللص في الحال إلى أذن المسيح وإلى قلبـه، فقال له الرب «الحق أقول لك: إنك اليوم تكون معي في الفردوس».

فـي مشـهدِ الشـر الـذي ... بـ الظُّلمِ ضـج وأرعَـدَ
ورئـيسُ هـذا العـالمِ الـ ... ـشريرَ هـاجَ وعربَـدا
سـطعَ ضـياءُ الحـبِ يُثـ ... ـلِجُ فـي الصـدور الأفْئـدةْ
فـاللصُ نـالَ العفـوَ حَـا ... لاً حينمـا قِيـلَ الفِـدا
قـالَ لـهُ: اذْكُرْنـي متـى ... جئـتَ بمُلكِـكَ سـيداً
فأجابـهُ: اليـومَ تكـو ... نُ معـي وتبقـى للمـدى

هذا كله حدث يوم ضعف المسيح، فالكتاب المقدس يقول إنـه «صُـلِبَ مـن ضـعف»

(٢كو١٣: ٤). فإذا كانت صرخة شرير مستغيث استجابها الرب بمثل هذه السرعة في يوم ضعفه، فهل تظن أنه يتوانى في الخلاص اليوم؟ أو أن شخصاً يستغيث به وتضيع صرخته هباء؟ إذا كان المخلص المائت قدر أن يخلص فكم بالأحرى المخلص المُقام، الذي انتصر على الموت، والذي ارتفع إلى المجد؟ إذا كان وهو على الصليب قد تجاوب مع نداء خاطئ تائب، وفتح أمامه باب الفردوس، فماذا وهو الآن على العرش؟ إذا كان، وهو مُجرد من كل شيء، رد على اللص هذا الرد العجيب، فماذا يكون وقد دُفِع إليه كل سلطان في السماء وعلى الأرض؟

لقد أظهر المسيح في هذا اللص معرضاً، لا لنعمته فقط، بل لقوّته أيضاً، في اليوم نفسه الذي فيه كانت قوته محجوبة خلف الغيوم، وذلك عندما قال له «الحق أقول لك: إنك اليوم تكون معي في الفردوس». أيوجد أعجب من هذا الانتقال السريع من دائرة الغضب إلى دائرة النعمة، ثم إلى دائرة المجد؟! لقد أقام الله ذلك اللص التائب ليكون معلماً للإيمان والتوبة، للبساطة والشجاعة، للثقة والرجاء. فهل نستحي أن نتعلم من شخص نظير ذلك اللص؟ أما الدرس الذي نتعلمه منه، فهو أن النظرة بالإيمان إلى المخلص المصلوب كافية للخلاص. هذا هو مجد النعمة.

سبعة دروس من أعتى اللصوص

أريد الآن - بنعمة الرب - أن أشير إلى عمل الله في هذا اللص التائب، وهو عمل سُباعي كالآتي: الانفصال، المخافة، التوبة، البصيرة، الإيمان، الشجاعة، الصلاة.

١ - **الانفصال:** وهو ما أشار إليه الرسول بطرس بالقول «تقديس الروح للطاعة» (١بط١: ٢). فالروح القدس يفرز الشخص ويفصله عن كل البشر ليتصرف، لا كما يتصرف الآخَرون، بل كما يوجهه ويعلمه روح الله. وهذا ما نراه هنا في هذا اللص. فلقد توقف عن تعيير المسيح كما كان يفعل هو في البداية، وكما استمر يفعله الآخرون حتى النهاية. والواقع أنه أسهل جداً أن يسبح الشخص مع التيار، ومن العسير أن يصارع ضده. وفي مشهد الصليب كان كل الناس ضد الرب يسوع، لكن ذلك اللص وقف في الساحة بمفرده، وقف وحده ضد كل العالم.

٢- **مخافـة الله:** بمجرد أن فصله روح الله عن البشر المحيطين فقد قال لزميله: «أَ وَلا أنـت تخاف الله؟». ما أعجب أن نرى ثمر التقوى في قلب شخص كهذا اللص، الـذي، طـوال عمره، لم يعمل حساباً لله قط. إننا في هذا اللص نرى ليس الخوف مـن الله، الـذي هـو إحدى ثمرات الخطية، بل خوف الله وهو ثمرة من ثمار عمل الله في النفس، بل هـو رأس الحكمة (مز١١١: ١٠). ومن فوق ذلك الصليب تحققت كلمـات الجامعـة «قـد عرفـت

أن كل ما يعمله الله أنه يكون إلى الأبد.. وأن الله عمله حتى يخافوا أمامه» (جـا٣: ١٤). ونتيجةً لثمر التقوى ومخافة الله في قلبه، فإنه توقف عن الاشتراك في أعمال الظلمة غيـر المثمرة وبدأ يوبخها (أف٥: ١١).

٣- **التوبة:** إذ قال لزميله «أ ولا أنت تخاف الله، إذ أنت تحت هذا الحكم بعينه؟ أمـا نحـن، فبعدل، لأننا ننال استحقاق ما فعلنا». لقد دان هذا اللص الشر فـي نفسـه عنـدما قـال «**نحن**... ننال استحقاق ما فعلنا». أي أنه أقر باستحقاقه لموت الصليب، بعكـس زميلـه الذي قال للمسيح «إنْ كنتَ أنت المسيح فخلص نفسك وإيّانا!». والتوبة اللازمة للخـلاص تعني تغيير الفكر بالنسبة للخطية. إنها الحزن على الخطية وكراهيتها وتركها. لكنهـا – كما نرى في هذا اللص- أعمق من ذلك أيضاً، فهي تتضمن اكتشاف عمق خرابنا وفسادنا التام وعدم استحقاقنا لشيء. إنها ليست فقط الحكم على الخطية، بل أيضـاً الحكـم علـى النفس نتيجة الضمير الذي تيقظ بفعل روح الله.

٤- **البصيرة:** إذ قال عن المسيح لزميله «أما هذا، فلم يفعل شيئاً ليس في محلـه». لقـد عرف ذلك اللص المسكين أفضل مما عرف رؤساء الكهنة وقادة الأمـة. ففـي نظـر الكتبة والفريسيين لم يعمل المسيح شيئاً في محله، لكنه في نظر ذلك اللص الذي جلـى الله بصيرته «لم يفعل شيئاً ليس في محله». ما أجلى البصيرة التـي جعلتـه يلاحـظ الفارق الكبير بينهما (هو وزميله) وبين المسيح ولو وضعوه في الوسط، كمـا جعلتـه يرى في يسوع، مسيح الله ومُخلّص الخطاة، والذي إن كان قد أخذ فوق الصليب مكـان الدينونة فقد أخذه بالنعمة فقط.

٥- **الإيمان:** ويعلمنا الكتاب المقدس أن الخلاص هو بالتوبة وبالإيمان. ولقـد أظهـر ذلـك اللص توبته في كلماته لزميله، كما أظهر الإيمان في كلماته للمسيح إذ قال له: «اذكرنـي يا رب متى جئتَ في ملكوتك». فذلك اللص لم يتحول من معير للمسـيح إلـى شـخص

يرثي له كما فعلت بنات أورشليم (لو٢٣: ٢٧،٢٨)، ولا حتى ليظهر له الرحمة، بل إنـه إذ أحس بعظمته فقد طلب منه الرحمة! والإيمان الذي يخلص لـيس إيمانـاً عقائـدياً أو معرفة بحقائق تاريخية. إنه ليس الاقتناع بشخص المسيح أو الإعجاب به. بل هو فـي المقام الأول الإركان الكلي إلى المسيح بالنسبة للحاضر والأبدية. صـحيح إن الإيمـان الذي يخلص يتضمن معرفة الحق الخاص بالمسيح كما يعلنـه الكتـاب المقـدس، لكنـه يتضمن أيضاً حالة القلب في موقفه من ذلك الشخص المجيد.

٦- **الشجاعة:** ما أعظم شجاعة ذلك اللص إذ يعترف بالمسيح ملكاً وباراًّ وربّاً. فعندما تداعى إيمان الرسل تشامخ إيمان ذلك البطل. لقد قدم في إيمانه فضيلةً (٢بط١: ٥). ولا شك أن هـذا اللـص يُخجِـل عشرات الآلاف من المؤمنين اليوم الذين يَخجلـون مـن المجاهرة بالمسيح وسط عالَمٍ معادٍ له، نـاكرٍ لصـليبه، وناكرٍ لربوبيته. نعم، ألا نخجل كلنا من قوة شهادة ذلك اللص يوم أن كان المسيح على الصليب بالمقابلـة مـع شهادتنا الباهتة الضعيفة، مع أن المسيح اليوم مُمَجد فـي السماء، وجالس عن يمين الله وقد دُفِع إليه «كل سـلطان في السماء وعلى الأرض»؟

> هذا اللص يوبِّخ مؤمني اليوم الـذين يَخجلـون مـن المجـاهرة بالمسـيح وسـط عـالَمٍ معـادٍ له. ألا نخجل كلنـا مـن قـوة شـهادة ذلـك اللـص يـوم أن كـان المسـيح مصـلوباً بالمقابلة مع شهادتنا الباهتـة الضـعيفة، مـع أن المسـيح اليوم مُمَجَّد في السماء؟!

٧- **الصلاة:** هذا الخاطئ العاتي ربما لم يُصل لله فـي كل حياته. أما وقد عمل فيه روح الله فها نحن نسـمعه يصلي إلى الرب «اذكرني يـا رب متـى جئـت فـي ملكوتك». ومع أن الفارق، بحسب البشر، بين لص قاتل وفريسي هو شاول الطرسوسي، فارق هائـل، إلا أنهمـا بعد الإيمان الحقيقي جمعهما شيء مشترك هو الصـلاة. وما كان أحلى صرخة هذا الوليد الجديد وهو في مهده العجيب (الصليب) فـي أذنـي ذاك المصلوب إلى جواره، والذي قال بعد ذلك عن شاول الطرسوسي «هوذا يصـلي» (أع٩: ١١).

إيمان عجيب

أشرنا إلى أن إيمان ذلك اللص الذي تاب وهو مُعلق على الصليب إلى جوار الرب يسوع هو إيمان عجيب، ربما لم يرتق إيمان منذ بدء الخليقة نظيره. ويشتمل هذا الإيمـان العجيـب على سبعة أمور مجيدة كالآتي:

أولاً: لقد آمن ذلك اللص بالخلود، وبأنْ هناك بعد الموت وجود. وإلا فمـا الـداعي لأن يدعو زميله إلى خوف الله؟ ما فائدة خوف الله لشخص سيودع الحياة بعد سـاعات، إذا كـان الموت هو نهاية كل شيء؟ وإذ تضمن إيمان ذلك اللص هذا العنصر، فإنه لم يطلب الخـلاص من آلامه الجسدية الحالية، بل طلب أن يذكره المسيح في يوم مُقبِل.

ثانياً: آمن اللص أيضاً برحمة الله العجيبة، ولهذا فقد اعترف وأقر بذنبه العظيم. عند البشر، يعتبر الاعتراف هو سيد الأدلة، فيحاول الجاني قدر استطاعته أن يتجنب الاعتراف. أما عنـد الله فالإقرار بالذنب هو خطوة لا بد منها للحصول على الغفران، وذلك لأن البديل الكريم دفع الحساب عن كل تائب مؤمن. قال الحكيم «مَنْ يكتم خطاياه لا ينجح، ومَن يقـر بهـا ويتركهـا يُـرحَم» (أم٢٨:١٣).

ثالثاً: أقر ذلك اللص ببر المسيح وبكمال ناسوته الفريد. والجو الذي تم فيه ذلك الإقـرار لافت للنظر، فعندما تداعى إيمان الرسل تشامخ إيمان اللص! وعندما أجمعت الأمة أن يسـوع مستوجب الموت، أعلن ذلك البطل أن المسيح لم يفعل شيئاً ليس في محله!

رابعاً: اعترف اللص أيضاً بلاهوت المسيح وبربوبيته. لقد سمع تهكمات رؤساء الكهنـة «إن كنتَ ابن الله فانزل عن الصليب» (مت٢٧:٤٠)، والمسيح لم يرد علـى تعييـرهم، ولـم ينزل. لكن ذلك اللص بالإيمان - لا بما تراه الأعين - رأى اللاهوت فـي ذلـك المصـلوب الأوسط، فقال له «يا رب».

خامساً: اعترف اللص بأن يسوع هو المخاص، فقال له «اذكرني». دون أن يحـدد لـه الطريقة التي بها يذكره، واثقاً في صلاح المسيح. وقديماً نسي رئيس السقاة يوسف عندما قال له: «اذكرني»، أما يوسف الحقيقي فلم ينسَ قط مسكيناً استغاث به!

سادساً: اعترف اللص بأن ذلك المصلوب إلى جواره هو الملك، كما عرف أيضاً أن لـه ملكوتاً. فمع أنه كان مُعلقاً على صليب العار، لا مُكللاً بتيجان المُلك وأكاليل الفخار، ومع أنـه

كان مُعتَبراً كأنه واحد من الأثمة، لا مُحاطاً بحاشية من الوزراء، وتخدمه مجموعة من العبيـد والخدم، فإنه رغم ذلك رأى فيه – بالإيمان - ملكَ اليهود.

سابعاً: آمن بمجيئه الثاني عندما قال له «اذكرني يا رب **متى جئت** في ملكوتك». فلقـد عرف ذلك اللص أفضل من بعض دكاترة اللاهوت الذين لا يعرفون سـوى ملكـوت المسـيح الروحي الحاضر. لقد تعلم من روح الله أن المسيح سيأتي ثانية ليؤسس ملكه. أو كمـا قـال المسيح عن نفسه إنه «ذهب إلى كورة بعيدة ليأخذ لنفسه مُلكاً ويرجع» (لو١٩: ١٢). وها ذلك اللص يقول للرب «اذكرني... متى جئتَ في ملكوتك*».

رد المسيح العجيب

كان هذا إيمان ذلك اللص. وما أروعه إيماناً! فبماذا أجابه الرب؟ أو بالأحرى مـاذا كـان تَجاوب النعمة الغنية مع هذا الإيمان العظيم؟ لقد كان التجاوب رائعاً كذلك، إذ قـال لـه المسـيح «الحق أقول لك إنك اليوم تكون معي في الفردوس».

«الحق أقـول لـك» ... **يـا للتأكيـد!**

«إنـــك اليـــوم» ... **يا للسرعة!**

«تكـــون معـــي» ... **يـا للرفعـة!**

«فـــي الفـــردوس» ... **يـا للمجـد!**

لقد أعطى الرب ذلك اللص التائب، نتيجة طلبتـه، أكثـر جـداً ممـا طلـب أو افتكـر (أف٣: ٢٠).

فلقد ترجى ذلك اللص الخير في يوم عتيد بعيد، لكن المسيح قال له: «اليـوم»، بـل إنـه لحظة الرقاد هنا سيكون مع المسيح في المجد هناك.

ولقد طلب اللص نصيباً في ملكوتٍ أرضي، فأعطاه الرب نصيباً في فـردوسٍ سـماوي؛ ذلك المكان الرائع، حيث الجمال والسلام والمجد.

* ليس متى جئت لتملك، بل متى جئت في ملكوتك، أو متى جئت ملكاً (رؤ١٩: ١٦).

ولقد طلب اللص أن يذكره المسيح، فأجابه الرب بأنه لن يذكره فقط، بل سـيكون معـه، سيكون في رفقته.

قال أحدهم "إن واحداً من المصلوبين الثلاثة مات بلا رجاء، أما الآخران فقد أخذا موعـد لقاء في السماء. وهذان الآخران أحدهما هو ابن الله، يسوع البار، والثاني هو لص أثـيم مـن الفجار!"

تفنيد هرطقات

وكلمات المسيح هنا للّص تعتبر أول إعلان في الكتاب المقدس على أن أرواح القديسين تـذهب فور الرقاد إلى وجود حقيقي وشعور كامل في جو البركة مع المسيح.

- لقد اخترع البعض هرطقة **رقاد النفس** التي بنوها على كلمات سليمان «الموتى لا يعلمون شيئاً» (جا٩:٥). وأولئك الذين يعلمون بخرافة نوم النفس بعد الموت قرأوا هذه الآية هكذا "الحق أقول لك اليوم: إنك تكون معي في الفردوس". وهم بهـذه القـراءة المغلوطـة لا يخدعون سوى نفوسهم وكل الذين في قلوبهم غرض وفي نفوسهم مرض. كـلا بـل إن الرقاد للأجساد، أما النفوس والأرواح فإنها تذهب في نفس اللحظة التي يحدث فيها الموت لتكون مع المسيح في الفردوس (في١: ٢٣،٢٤).
- وآخرون اخترعوا ما هو أشر، أعنى به **خرافة المطهر** الذي يُعذب فيه المـؤمنُ ليؤهـل للسماء. والواقع أنه لو كان هناك إنسان أحوج إلى المطهر من غيره لكـان هـو ذلـك اللص. فكون اللص لم يذهب إلى هذا المطهر المزعوم، يدل على أن هـذا الفكـر هـو محض خرافة من خرافات العقل البشري السخيف، تماماً مثل الخرافة السابقة. إن كلمات المسيح لهذا اللص هنا تنفي تماما هاتين الخرافتين.
- وهناك أيضاً فكر لدى البعض عن شيء اسمه **اللمبوس***. والكتـاب المقـدس لا يكلمنـا

* هذا الفكر هو وليد قصة "دانتي" الذي يُعتَبر أشهر تلاميذ "توما الأكويني" (القرن الثالث عشـر) حيـث عبّر عنه في روايته "الكوميديا الإلهية"، والتي فيها شرح فكره عن السماء والجحيم والمطهر، وفيهـا قال إن اللمبوس هذا عبارة عن ظلال قاتمة بلا آلام شديدة، حيث تتصاعد أحزان بلا ألم. ولقد استمد

سوى عن الهاوية في العذاب لِمَن رفض خلاص المسيح المجاني، والفردوس لكـل مـن قبله، حتى ولو كان مثل هذا اللص الجاني، الذي تاب وآمن في آخـر لحظـات عمـره. نعم، فهذا اللص لا ذهب إلى المطهر ولا إلى اللمبوس، بل إلى الفردوس.

- والمسيح أيضاً لم **يذهب إلى الجحيم** من قِبَل الصليب، كما يُعلم البعض، بل إلى الفردوس، وقبيل موته قال لأبيه «يا أبتاه، في يديك أستودع روحي» (لو٢٣:٤٦).

يا لروعة النعمة! فبينما الإنسان يطرد مسيح الله من الأرض قاتلاً إياه، فإن المسيح يقبل لصاً قاتلاً في فردوس الله. لقد كان عجيباً أن يغمض لعازر المسكين عينيه هنا على الأرض، وهو وسط الأوحال والمزبلة، ليجد نفسه في حضن إبراهيم، لكن أعجب منه أن يغمـض ذاك القاتل عينيه فوق الصليب ليجد نفسه في فردوس الله!

ولكم تعجب الملائكة في ذلك اليوم عندما شاهدوا اللص يدخل إلى الفردوس بعـد المسـيح مباشرة، وكأن المسيح قال لهم: "لا تغلقوا الباب، فورائي شخص قادم". وكم كانت دهشـتهم إذ كان هذا الشخص لصّاً ليس له أي رصيد مـن الأعمـال الصالحة. وكأن المسيح يرد على دهشة الملائكة في ذلك اليوم بالقول: "هذا مجرد عينة لكثيرين سيأتون من بعده".

> يـا لروعـة النعمـة! فبينمـا الإنسـان يطـرد مسـيح الله من الأرض قـاتلاً إيـاه، فـإن المسيح يقبل لصاً قـاتلاً في فردوس الله.

نعم يا أخي العزيز، فهذا هو مجد النعمة. وما السماء إلا مكان لخطاة بحسب الطبيعة غسلهم دم المسـيح، وطهـر الإيمان قلوبَهم وضمائرهم. وهذا كله مُقدمٌ للجميع، لكـل من يريد، بالنعمة المجانية وحدها.

«الحق أقول لك إنـك اليـوم تكـون معـي فـي الفردوس» هذه هي السماء التي تنتظرنا يا أخي العزيز. فليست السماء مكاناً شوارعه ذهبية، وأبوابـه لؤلؤيـة، وأنواره لا تغيب. فمع أن هذا كله صحيح، لكن السماء بغير المسـيح لا تكـون سـماءً. إن السماء هي الوجود مع المسيح، وذاك أفضل جداً. إن جمال السماء ومتعتها ليس أننا سنخلص

هذا التعليم سلطته بمرسوم من البابا "أنوسنت الثالث" نحو عام ١٢٠٠م حيث قرر أن عقوبة الخطيـة الأصليه هي الحرمان من رؤية الله، أما عقوبة الخطايا الفعلية فهي عذاب النار الأبدية.

من متاعب الحياة وآلام الزمان الحاضر، بل أننا سنتمتع بالمسيح ونكون معه بلا افتراق.

لهذا تألم المسيح لأجلنا خارج المحلة، ليضمن لنا مكاناً معه داخل الحجاب. ولهـذا عُلـق فوق صليب العار، كي ما نشاركه في بيت الآب إلى أبد الآبدين.

العبارة الرابعة من فوق الصليب

كلمات الهجر

ومن الساعة السادسة كانت ظلمة على كل الأرض إلى الساعة التاسعة. ونحو الساعة التاسعة صرخ يسوع بصوت عظيم قائلاً:

إِيلِي، إِيلِي، لَمَا شَبَقْتَنِي؟

أي:

إِلَهِي، إِلَهِي، لِمَاذَا تَرَكْتَنِي؟

(مت ٢٧:٤٥، ٤٦)

تأملنا، في ما سبق، عبارات المسيح الثلاث الأولى من فوق الصليب، والتي نطق بها في ساعات النور. أما العبارة التي نتحدث عنها الآن فلقد نطق بها بعد ساعات الظلمة. لذا دعنا الآن أولاً ننشغل برسم الخلفية التي منها نطق ربنا الكريم بهذا النطق الخالد.

جو الجلجثة

الظلمة المعجزية: لقد سجّل العديد من المؤرخين حادثة الظلمة في أسفار أخبارهم. فمثلاً ذكر أوريجانوس، المعلم المسيحي المشهور، أنه اطلع على ما سجله الوثنيون بشأن هذه الحادثة. وترتوليان، في أواخر القرن الثاني الميلادي، قرر أن أعداء المسيحية أنفسهم سجلوها في بطون محفوظاتهم. ولكن بالنسبة للمؤمن يكفيه جداً أن الوحي سجلها، ولا يحتاج بعدها إلى دليل آخر، أو إلى شهادة أحد من الناس. ويهمنا أن نوضح أن هذه الظلمة لم تكن كسوفاً عاديّاً للشمس، لأن المسيح صُلِبَ في يوم عيد الفصح اليهودي، وهو اليوم الرابع عشر من الشهر القمري، أي عندما يكون القمر بدراً، أي في مواجهة الشمس، مما يستحيل معه، وهو في هذا الوضع، حدوث الكسوف. ثم إن الكسوف الذي نعرفه، متى حدث، لا يزيد عن دقائق معدودة.

هذه الظلمة – إذاً - هي واحدة من الآيات التي صاحبت الصليب. وذاك الذي ارتبط ميلاده بظاهرة فلكية عجيبة (مت١٠،٩،٢:٢)، ارتبط موته كذلك - كما نقرأ الآن - بظاهرة فلكية أخرى عجيبة! فهل هو قليل أن الخالق العظيم لكل شيء يُولَد كباقي البشر، ويوضع في مذود حقير كأنه أقل من البشر؟! ثم أليس أعجب أن يموت في النهاية معلقاً فوق صليب، ثم يوضع بعد ذلك في قبرٍ موحشٍ كئيب؟!

إننا نتذكر أنه في الليلة التي وُلد فيها المسيح أتى ملاك الرب إلى رعاة يحرسون غـنمهم على روابي بيت لحم، ويقول لنا البشير لوقا إن مجد الرب أضاء في ليل الرعاة (لـو٩،٢:٨). وهنا نقرأ، في يوم موته، عن ظلمة تغطي الأرض في منتصف النهار. نعم، فهو عظيم وابـن العلي يُدعَى، ولذلك ففي مولده تحول الليل نهاراً، وفي موته استحال الضياء ظلاماً!

إن الظلمة التي حدثت في الجلجثة هي حقاً ظلمة معجزية. فإن كان النور عادة هو الذي يطرد الظلمة، فإن تلك الظلمة هي التي غيبت نور الشمس في الظهيرة. ويا لـه مـن معنـى خطير، ويا لرهبة قدرة الله القدير! ومن نصوص الكتاب نفهم أن هـذه الظلمـة لـم تحـدث تدريجياً، ولا تلاشت تدريجياً، بل إنها خيمت دفعة واحدة في البداية، ثم انقشعت دفعـة واحـدة في النهاية. حتى إننا نستطيع أن نقول إنه كان لها معنىً رمزيّ يرتبط بآلام الصـليب خـلال ساعات الظلام، وبصرخة المتألم القدوس في ختام تلك الساعات.

الصمت المطبق: سبقت هذه الظلمة ثلاث ساعات كان المسيح فيها معلقاً فوق الصـليب، وفيها تكلم المسيح بعباراته الثلاث الأولى التي تأملناها في ما سـبق. وفيهـا، بعـد أن قسـم العسكر ثياب المصلوب واقترعوا على قميصه، راحوا يسخرون منه. وفيها رؤسـاء الكهنـة والكتبة، بعد أن اعترضوا على العنوان الذي كتبه بيلاطس فوق صليب يسوع، راحوا يتهكمون عليه ويتحدّونه أن ينزل مِن على الصليب. كما أنه بعد تلك الساعات الثلاث دبت الحركة فـي المشهد من جديد، فتكلم يسوع، كما أخذ جمهور المتفرجين يروحون ويغدون. أما في الساعات الثلاث فلا نرى سوى الظلمة، ولا نسمع سوى الصمت. لقد استولت على الجميع حيـرة مـن شعور غامض بالخوف مُركز في الصليب والمصلوب. ويسـجل البشـيرون أن قائـد المئـة الروماني لما رأى ما كان «مَجد الله قائلاً: بالحقيقة كان هذا الإنسان باراً ... حقاً كان هذا ابن الله» (لو٢٣:٤٧؛ مت٢٧:٥٤).

* * * *

لقد اعتبر بعضهم تلك الظلمة التي غطت الجلجثة أنها كانت تعبيراً عن حزن الخليقـة علـى موت خالقها فاتشحت بالسواد. ومع أن هذا التعبير جميل، فإنني أعتقد أن المعنى أعمق من هـذا. فالأرجح أن الظلمة حدثت لأن الله الديان في ذلك الوقت كان يتعامل بالعـدل مـع ربنـا يسـوع المسيح، الذي قَبِل أن يأخذ مكاننا ويحمل دينونتنا. وهذا التعامل بين الله والمسيح ليس لمخلـوق - كائناً من كان - أن يتجاسر ليدخل أو يحاول أن يعرف ما دار فيه. لـذلك لـف الكـونَ ظـلامٌ،

وأطبق على الجميع سكونٌ. فنحن لا نسمع طوال ثلاث ساعات كاملة كلمة لأحد، إلـى أن قطـع المسيح هذا السكون بالصرخة التي ستكون موضوع تأملنا الآن.

وإزاء هذا الصمت المطبق، وأمام هذا الظلام، كيف يمكننا أن نفهم ما كان يجري في تلك الساعات الرهيبة؟ على أنه إن كانت قصة الأناجيل لا تعطينا وصفاً لما حدث، فلنتحـول إلـى أقوال الأنبياء وكلمات المزامير التي تصف لنا مشاعر المسيح في ذلك الوقت. ثم لنستمع إلـى صرخته في نهاية ساعات الظلمة «إلهي، إلهي، لماذا تركتني؟» لنفهم ما حدث فيهـا، ونجتلـي بذلك القليل من أسرار الفداء.

أحزان الجلجثة

هل تتذكر بستان جثسيماني؟ لماذا كانت نفس المسيح حزينة جداً في البستان؟ لماذا كان في جهاد وكان يصلي بأشد لجاجة؟ لماذا أرسل الله ملاكاً من السماء ليقوّيه؟ السبب أنه هناك شاهد السحب السوداء الكثيفة التي كانت ستصُب غمارها على رأسه القـدوس فـي الصـليب. فماذا نتوقع أن يكون حاله عندما وصل إلى الصليب؟ إنه هنا فـي الجلجثـة شـرب الكـأس الرهيبة التي فزعت نفسه عندما تأمل محتوياتها في البستان.

ويمكننا تقسيم آلام الجلجثة وأحزانها إلى عناصر ثلاثة:

مياه غامرة، نيران آكلة، ظلمة دامسة.

١- **مياه غامرة:** استمع إليه يقول - بحسب المزمور ٤٢ «غَمرٌ ينادي غمراً عند صوت ميازيبك. كل تياراتك ولججك طمت علي». قديماً جاء الطوفان علـى العـالم بسـبب شـر الانسان، وتعاظمت المياه جداً، وغطت جميع الجبال الشامخة. لكنها على أية حال كانت مياهاً عادية، أما بالنسبة للمسيح على الصليب فلم تكن مياهـاً عاديـة. يقـول فـي المزمـور ٦٩ «خلصني يا الله، لأن المياه قد دخلت إلى نفسي. غرقتُ في حمأة عميقة، وليس مقر. دخلـتُ إلى أعماق المياه، والسيل غمرني... نَجني من الطين فلا أغـرق». وهـذا كلـه تصـوير لحماقاتنا وذنوبنا التي وُضِعَت على المسيح. لقد أحاطته الخطية من كل جانب وغطته بالتمام، وهو الذي لم يعرف خطية!

٢- **نيران آكلة:** في سفر مراثي إرميا يقول المسيح بروح النبوة «أَمَا إلـيكم يـا جميـع

عابري الطريق؟ تطلعُوا وانظروا إنْ كان حزن مثل حزني الذي صُنِعَ بي، الذي أذلني به الرب يوم حُمُو غضبه؟ من العلاء أرسل ناراً إلى عظامي، فَسَرت فيها». إن تلك النيران التي اشتعلت في مخلصنا في ساعات الظلمة كانت أشد هولاً من نيران الأتون المحمى سبعة أضعاف في بابل (دا ٣). هل تتذكر ماذا فعل الله بسدوم وعمورة؟ كيف أمطر الله عليهما ناراً وكبريتاً، فأحرقهما (تك١٩)؟ لكن كراهية الله ضد الخطية لم تُرَ بصورة أكثر هولاً مما نراه في صليب المسيح.

على مدى أربعة آلاف سنة قبْل المسيح، كانت النيران تأكل الذبائح التي تُقدم لله. لكن لم توجد ذبيحة قِدِرت أن تُنْهي تلك النيران، بل إن النيران الإلهية هي التي أتت على جميع الذبائح، ولم تنطفئ النار بعد. ذلك لأن كل تلك الذبائح الحيوانية كانت محدودة، ولا تقدر أن توفي الله غير المحدود حقوقه. حتى أتى المسيح، الذبيح العظيم، والفادي الوحيد، حمل الله الكريم، هو وحده أمكنه أن يحتمل كل تلك النيران وينهيها تماماً بالنسبة لنا.

يا للعجب! حمل الله خارج المحلة! محبوب الآب في مكان المطرودين من محضر الله! القدوس البار مثله مثل البرَّص، بعيداً عن مقادس الله!

إن الحيوانات التي كان يُدخَل بدمها إلى الأقداس للتكفير، كانت تُحرَق أجسامها خارج المحلة. وها المسيح هنا يقوم بعمل الكفارة العجيب، وها جسده يُصلَى بنار اللهيب.

يا للعجب! حمل الله خارج المحلة! محبوب الآب في مكان المطرودين من محضر الله! القدوس البار مثله مثل البرص، بعيداً عن مقادس الله! وآه من نيران الجلجثة التي اشتعلت في المسيح في ساعات الظلمة الثلاث، إنها نيران جهنم مُركزة، قاساها حمل الله لأجلنا هناك!

٣- **ظلمة دامسة:** أمر ثالث تحمله المسيح في ساعات الصلب هذه. اسمعه يقول، بحسب مزمور ٨٨ «وضعتني في الجب الأسفل، في ظلماتٍ، في أعماقٍ. علي استقر غضبك وبكل تياراتك ذللتني». وما هذه الظلمة إلا تعبير عن الخطية. أو هي تعبير عن قسوة الموت الذي قاساه ربنا يسوع المسيح. كانت الظلمة شهادة لآلام المسيح غير الظاهرة في موته الكفاري؛ تلك الآلام التي كانت توقعها يد غير منظورة، هي يد العدل الإلهي على من جُعِلَ خطيةً،

وحمل في جسده خطايانا على الخشبة.

وما أرهب تلك العبارة «علي استقر غضبك». يتساءل ناحوم النبي قائلاً: «مَن يقف أمام سخطه؟ ومن يقوم في حُمُو غضبه؟» (نا١:٦). والإجابة الواضحة أنه لا يوجد إنسان يقـدر أن يقف أمام سخط الله، وأن يقوم في حمو غضبه. نعم، لا يوجد سوى المسيح الذي قـدر أن يحتمل ذلك الغضب الرهيب جداً. احتمله - تبارك اسمه - في ساعات الظلمة هذه.

* * * *

قارئي العزيز: هل بان غضب الله على العالم القديم عندما فاض عليه الماء فهلك؟ وهـل تجلى ذلك الغضب عندما رمد مدينتي سدوم وعمورة، وجعلهما عبرة مكابدة عقاب نار أبديـة؟ وهل ظَهَر أيضاً عندما صنع بفرعون وبالمصريين أحكاماً؟ وعندما كان الظلام الدامس علـى أرض مصر لمدة ثلاثة أيام؟ وهل نستشعر سخطه الشديد عندما أقسم ألا يدخل الشـعب غيـر المؤمن إلى أرض الميعاد، بل طرح جثثهم في القفر؟ نعم، لكن غضب الله ضـد الخطيـة لا نجده في أي وقت أو أي مكان مثلما نراه في الجلجثة، عندما كان ابن الله معلقا على الصـليب، تغمره الأوحال، وتتخلله النيران، ويلفه الظلام، متروكاً من الله!

منفرداً فوقَ الصـليبِ قـد تُرِكْـتْ — ولم تَجِـدْ حولـكَ عَينـاً أشـفَقَتْ
والآن عن يمـينِ اللهِ قـد رُفِعـتْ — تُرددُ السـماءُ مـدحَ مـا فَعَلْـتْ

فهـل هُنـاكَ اللهُ قـد ترَكَـكَ — وعن صـراخِكَ بعيـداً قـد غَـدا
فالآنَ في الوجهِ الـذي قـد أُفسِـدَ — نقـرأُ مَجـدَ اللهِ فائقـاً بَـدا

هوذا الإنسان، رجل الأحزان

لقد تألم المسيح في كل حياته، فكان بحق رجل الأوجاع. في طفولته تألم مـن الإنسـان ممثلاً في هيرودس، قاتل صبيان بيت لحم، فاضطر أن يهرب به يوسف وأمـه إلـى مصـر. وفي بداية خدمته تألم من الشيطان عندما اقتاده الروح إلى البرية ليُجرب أربعـين يومـاً مـن إبليس. أما في ساعات الظلمة، في الجلجثة، فنرى شيئاً مختلفاً تماماً: أنه كان يتـألم مـن الله الديان. وما أشد تلك الآلام! إنها أشد بما لا يقاس من كل الآلام الجسدية، وأقسى بكثيـر مـن

كل الآلام النفسية. فالمسيح احتمل الآلام الجسدية الرهيبة ولم يفتح فاه، وعانى الآلام النفسية القاسية دون أن ينبس ببنت شفة، أما أمام الآلام الكفارية، وأمام حمو غضب إله السماء الذي انصب عليه، فقد صرخ صرخته المُرة «إلهي، إلهي لماذا تركتني؟»

لقد تميز مشهد الجلجثة في الثلاث ساعات الأولى من الصليب بظلمة أدبية وروحية من الناس الأشرار الذين كانوا عند الصليب، أما الثلاث ساعات التالية فكانت هناك ظلمة من نوع آخر، أكثر رعباً وأشد هولاً. وإن كان المسيح في ساعات النور تحمل بشاعة الخطية، فإنه في ساعات الظلام حمل عقوبتها. فالله جعله خطية، وفيه «دان الخطية في الجسد» - أصل كل الشرور والنجاسات. كما أنه حمل خطايانا - الأفعال الشريرة ذاتها، وتألم من أجلها (٢كو٥: ٢١؛ رو٨: ٣؛ ١بط٢: ٢٤؛ ٣: ١٨)

هنا نحن نرى الثمن الحقيقي للفداء، عندما ترك الله المسيح. إن أفكار الناس من كل الأجناس، وقلوب الملايين من كل القبائل والشعوب ترنو لذياك الصليب، وتميل لتنظر هذا المنظر المهيب. فالصليب هو قلب الإيمان المسيحي، وتلك الصرخة هي قلب الصليب، وهذه العبارة من فوق الصليب من بين عبارات المخلص السبع هي قلب كل العبارات.

إنَّ أفكار الناس من كل الأجناس ترنو لذياك الصليب، وتميل لتنظر هذا المنظر المهيب. فالصليب هو قلب الإيمان المسيحي، وتلك الصرخة هي قلب الصليب، وهذه العبارة من فوق الصليب من بين عبارات المخلِّص السبع هي قلب كل العبارات.

نعم، «نحو الساعة التاسعة (وهي تعادل الثالثة بعد الظهر بتوقيتنا الحاضر) صرخ يسوع بصوت عظيم قائلاً: إيلي، إيلي، لَمَا شبقتني؟ أي: إلهي، إلهي، لماذا تركتني؟» أي ذهن يقدر أن يسبر غور أعجوبة الأعاجيب هذه؟ أي فكر يقدر أن يتخلل أستار الظلام هذه؟ أي عقل يقدر أنْ يفسر أو يفلسف تلك الصرخة التي لم يُسمَع نظيرها، ولن يُسمَع؟

ولقد تحمل المسيح كل هذا من أجلنا. فإذا أردنا أن نعرف عُلوَ محبة المسيح تجاهنا، فعلينا أولاً أن نعرف عمق الألم الذي قاساه لأجلنا. والواقع إن كليهما أبعد من القياس: فآلامه تفوق الإدراك، ومحبته فائقة المعرفة.

ولا أعتقد أن هناك صرخة - في الزمان أو في الأبدية - تحوي من الألـم والفـزع مـا تحويه صرخة المسيح هنا «إلهي، إلهي لماذا تركتني؟». فهيا الآن بروح الخشـوع، وبنعـال مخلوعة نميل، لننظر هذا المنظر العظيم. فإنه عنـدما يسـتحيل علـى عقولنـا أن تفهـم أو تستوعب، تستطيع قلوبنا أن تسجد بتعجب وخشوع، ولو لم تدرك الكل. ولهذا، فليس بعجيـب أننا في السماء، مع جميع المفديين، سنرنم له قائلين «مستحق أنت... لأنك ذُبِحتَ واشـتريتنا» (رؤ٥:٩).

لماذا تركه اللّه؟

لقد كانت صرخة المتألم الصابر وهو فوق الصليب هي «لماذا تركتني؟». ولنا نحن أيضاً أن نسأل: لماذا تركه الله؟ لقد تركه لأن هذه هي أجرة الخطية، فأجرة الخطية هي موت. ومـا هو الموت؟ هل هو الصمت المخيف الذي يسود المشهد الحزين بعد النفَس الأخير الذي يخـرج من الجسد الساكن؟ هل هو تلك البرودة التي تزحف على الجسد بعد توقف دورته الدموية؟ هل هو ترك الأحباء والأقرباء لحبيبهم في ظلمة القبر وحيداً؟ إنه في الواقع أكثر من ذلـك بكثيـر، وأكثر رعباً بما لا يُقَاس. وإنْ كان الموت الجسدي هو انفصال الروح عن الجسد، فإن المـوت الروحي هو انفصال روح الإنسان عن الله. إنه التركُ من قِبَل الله. إنه البعد عـن الله مصـدر الحياة، والانفصال عن الله مصدر النور.

لهذا كان ينبغي أن يُترَك المسيح من الله، لأنه فوق الصليب كان يدفع، نيابةً عنـا، أجـرة الخطية التي هي موت. ومَن أنا حتى يمكنني أن أتكلم عن هذا الأمر؟ ومَن أنا حتى أحـاول أن أشرح أو أفسر هذه العبارة العجيبة؟

لقد تكلمنا عن العبارات الثلاث الأولى، وأمكننا أن نتأمل طويلاً في معانيها، ذلك لأن تلك العبارات تتمشى مع الكثير من أقوال المسيح السابقة في حياته. فإن كلمته الأولى «يـا أبتـاه، اغفر لهم» والتي فيها يطلب الغفران للأعداء، وإنْ كانت غريبةً تماماً على الطبيعـة البشـرية، لكنهـا ليسـت غريبـةً عليـه

هو الذي علمنا أن نحب أعداءنا. وإن كان المسيح، في كلمته الثانية، أظهر اهتماماً بأمه، فهذا

أيضاً ليس بمستغرَب على شخص هو كمال الكمال في كل شيء، فكيف لا يُظهر الكمال في دائرة العلاقات الطبيعية أيضاً؟ وإن كان المسيح، في عبارته الثالثة مِن فوق الصليب، قد فتح باب الفردوس أمام خاطئ هالك، ولص مجدف، فهذا أيضاً ليس غريباً عليه، وهو قد جاء خصيصاً لكي يطلب ويخلص ما قد هلك. أما أن ينطق المسيح بهذه العبارة «إلهي، إلهي، لماذا تركتني؟» فهذا هو أعجوبة الأعاجيب حقا!

مَنْ فينا يعرف حقيقة الترك من الله ومعناه؟ لا أحد. فإننا بالكاد نعرف جزئياً ما نعانيه في لحظات اليأس القاتلة، عندما أحسسنا في لحظات أننا طُرحنا من قدام وجهه، وفقدنا ابتسامة محبته في وجوهنا. لكن ذلك في الواقع ليس هو الترك من الله. لأن الله قال للمؤمن «لا أهملك، ولا أتركك» (عب١٣،٦:٥).

حتى الأشرار الذين أبعدوا الله عن تفكيرهم، لم يختبروا إلى هذه اللحظة المعنى الرهيب للترك من جانب الله. فلقد قال الرسول بولس للوثنيين في أثينا إن الله «عن كل واحد منا ليس بعيداً. لأننا به نحيا ونتحرك ونوجد»، إذ أنه «يعطي الجميع حياة ونفساً وكل شيء» (أع١٧،٢٧،٢٨:٢٥). نعم، حتى الأشرار لم يسمعوا بعد القول الرهيب: «اذهبوا عني يا ملاعين»، ولا القول الخطير «تباعدوا عني يا جميع فاعلي الظلم» (مت٢٥:٤١؛ لو١٣:٢٧).

أما الصديقون والأبرار فقد كان الرب ملجأهم في أزمنة الضيق. يقول داود النبي «ويكون الرب ملجأ للمنسحق، ملجأ في أزمنة الضيق، ويتكل عليك العارفون اسمك، لأنك **لم تترك طالبيك يا رب**» (مز٩،١٠:٩)، ويقول «أيضاً كنت فتى وقد شخت، ولم أرَ صدّيقاً تُخُليَ عنه» (مز٣٧:٢٥)، وأيضاً «عليك اتكل آباؤنا، اتكلوا فنجيتَهم، إليك صرخوا فنجَوا، عليك اتكلوا فلم يخزَوا» (مز٢٢،٥:٤). وعندما كانت تضيق بهم الظروف، كان لسان حالهم «لماذا أنت منحنية يا نفسى؟ ولماذا تئنين في؟ ترجي الله، لأني بعد أحمده، خلاص وجهي وإلهي» (مز٤٢:١١).

وفي ساعة احتضارهم، كم كان الرب قريباً منهم! يقول داود «أيضاً إذا سرتُ في وادي ظل الموت، لا أخاف شراً، لأنك أنت معي» (مز٢٣:٤). فالرب لا يترك عبده المنتقل يعبر الوادي بمفرده، ولا يترك واحداً من قديسيه في الأتون وحده، ولم يترك أحد الشهداء في ساعة احتضاره، بل كانوا في ساعتهم الأخيرة بمعية الرب الشخصية، وروح المجد والله حل عليهم، فنسوا عذاباتهم، واستطاعوا أن يترنموا وهم مساقون إلى الاستشهاد. قال الرسول بولس «الجميع تركوني... لكن الرب وقف معي وقواني» (٢تي٤،١٧:١٦). أما يسوع فلم يكن هذا

حاله، فإن صرخته المُرة كانت خارجة من عمق أعماق الحزن، ما سمعتها نفـس حساسـة إلا وسَرَتْ بسببها رعدة في البدن.

لكن هذه الصرخة ليست فقط غريبة على اختبارات كل القديسين والأبرار، بل إنها فـي المقام الأول غريبة عن اختباره هو، ذاك الذي منذ الأزل، وإلى الأبد، هو في كمال الشركة مع أبيه. اسمعه يقول، حسبما ورد في أمثال ٨: ٢٧-٣٠ «لما ثَبتَ السماوات كنت هناك أنـا... لما رسم أسسَ الأرض كنتُ عنده صانعاً، وكنت كل يوم لذته».

ثم تأمله في خلال الثلاث والثلاثين سنة التي عاشها هنا فـوق الأرض. هـل تركـه الله طوال حياته؟ كلا، بل كان بحق «الساكن في ستر العلي، وفي ظل القدير يبيت» (مـز١:٩١). لقد تمتع هو - تبارك اسمه - بشركة مع الله غير مُعطلة. كان شعاره «جعلتُ الـرب أمـامي **في كل حين،** لأنه عن يميني فلا أتزعزع». أما الآن فقد انسحب منه دفء الشركة والمحبـة والحضرة الإلهية. لقد تُرِكَ بديلُنا المبارك في ساعات الظلمة فوق الصليب، فصرخ «إلهـي، إلهي، لماذا تركتني؟»

إن المسيح – في ساعات النور - عندما كان جسده القـدوس نهبـاً للنظـرات الشـريرة الفاجرة من البشر تحمل صامتاً؛ أما في ساعات الظلمة، عندما حُرِمَ نظرة الله المُحـب، تلـك النظرة التي كانت فيها حياته، فقد صرخ قائلاً «إلهي، إلهي لماذا تركتني؟»

عمق أحزان المسيح

لم يصرخ المسيح: "يا إلهي لماذا تنكر لي أبناء بلدتي؟"، فلقد رفضه مـن البدايـة أهـل مدينته، الناصرة، بل حاولوا طرحه من فوق الجبل الذي كانت مـدينتهم مبنيـة عليـه. ولـم يصرخ: "لماذا خذلني أصدقائي؟"، فالوحي يقول في مناسبة أخرى إن كثيـرين مـن تلاميـذه رجعوا إلى الوراء ولم يعودوا يمشون معه. نعم، ليس تَنَكر أبناء بلدته، ولا خـذلان أصـدقائه له، هو سر صرخته الآن. بل إن الرب أيضاً لم يصرخ قائلاً: "لماذا أنكرنـي بطـرس؟"، أو "لماذا خانني يهوذا؟"، وكأنه يقول "أنا أفهم ترك أقربائي ومُواطِني لي، لأنه أية شـركة للنـور مع الظلمة. وأفهم هروب التلاميذ وتركهم إياي بمفردي، لأن الجسد ضـعيف. لكـن لمـاذا تركتني يا إلهي؟!"

كان الرب في اليوم السابق قد قال لتلاميذه «هوذا تأتي ساعة، وقد أتت الآن، تتفرقون فيها كل واحد إلى خاصته، وتتركونني وحدي»، ثم أضاف «وأنا لست وحدي، لأن الآب معي» (يو١٦:٣٢). فعندما تركه التلاميذ كلهم وهربوا، كان له في رفقة الآب كل العزاء. وعندما نضب ينبوع محبة الناس ووفائهم، راح ينهل الزلال العذب من محبة الله ونور وجهه. أما الآن وهو فوق الصليب، إذ أتت ساعات الظلمة الرهيبة، فقد انسحبت منه هذه التعزية. هناك لم يصبّ أحدٌ على جراحاته زيتاً وخمراً، هناك لم يسمع سيدنا كلمة عطف من السماء، هناك لم يأتِ ملاك يقويه وهو في حزنه الشديد. لقد توقفت خدمة الروح القدس لروحه الإنسانية، وانقطعت ابتسامة وجه الآب، ولهذا فإنه صرخ «إلهي، إلهي لماذا تركتني؟»

استمع إلى تنهدات سيدنا كما عبر عنها روح النبوة في المزامير «يا رب، لماذا تقف بعيداً؟ لماذا تختفي في أزمنة الضيق» وأيضاً «أقول لله... لماذا نسيتني؟» وأيضاً «أنت إله حصني. لماذا رفضتني؟» وأيضاً «لماذا يا رب ترفض نفسي؟ لماذا تحجب وجهك عني؟ أنا مسكين» (مز١٠:١؛ ٤٢:٩؛ ٤٣:٢؛ ٨٨:١٤).

إنه أمر محزن أن يُترَكَ شخصٌ من أصدقائه، أو أن تُترَك عروسٌ من زوجها، وأن يُترَك طفلٌ من والديه. أما أن يُترَك شخصٌ من الله، فهذا هو العذاب الذي لا يشفق. لقد فضل موسى أن يموت هو والشعب على رمال البرية، وأن تنهش جثثهم حيواناتُ الصحراء، وتنقض عليها كواسر السماء، على أن يُحرَموا من ضياء وجه الرب، فقال للرب «إن لم يسر وجهك فلا تُصعدنا من ههنا» (خر٣٣:١٥). وهذا هو سر تلك الصرخة التي شقت ستار الظلام في الجلجثة. فعندما انسحب منه دفء الشركة والمحبة والحضرة الإلهية، وعندما تُركَ بديلنا المبارك وحيداً، فإنه صرخ «إلهي، إلهي، لماذا تركتني؟».

أمام تهكمات البشر ظَلّ صامتاً، وعندما قاسى على أيديهم العذاب ألواناً لم يصرخ. أما الآن عند حمو غضب إله السماء الذي انصب عليه، وعندما تركه الله فإنه صرخ «إلهي، إلهي لماذا تركتني؟»

أمام تهكمات البشر ظَلّ صامتاً، وعندما قاسى على أيديهم العذاب ألواناً لم يصرخ. أما الآن عند حمو غضب إله السماء الذي انصب عليه، وعندما تركه الله فإنه صرخ «إلهي، إلهي لماذا تركتني؟»

ألعلنا بعد ذلك نكون قد عرفنا عمق أحزان المسيح، وما احتمله في ساعات الظلمة الرهيبة؟ كلا البتة. فلقد وقفنا فقط على شاطئ آلامه، وأمامنا بحرٌ عَجاجٌ، بحرٌ أمواجه هائجة مزبد بالخزي، بحرٌ بعيد الأغوار ومليء بالأسرار.

رجلُ الرفقةِ كيف قد تُركتْ — أنتَ يا مَنْ لذّةَ اللهِ صَنعتَ
منشأُ الفرحةِ موضوعُ الرضا — كيف ربي غضبَ اللهِ احتملتَ
لستُ أدري أي حزنٍ كنتَ فيه — أي مُر ذُقتَ ربي بل شربتَ
كل ما أدريه عنكَ صرخةً — تكشفُ الأعماقَ عما فيه جُزتَ
يا إلهي يا إلهي لِمَ أنتَ — قد حجبتَ الوجهَ عني وتركتَ
آه ربي كان ذا عني أنا — كم سبيتَ القلبَ في وأذبتَ!

إننا من خلف حجاب تلك الظلمة نرى سيدنا كذبيحة الخطية، يتألم الآلام الكفارية. نراه يحمل حمل خطايانا الثقيل عندما وضع الرب عليه إثمَ جميعنا. نراه وقد جعله الله خطية لأجلنا لنصير نحن بر الله فيه. نراه يحتمل حُمُو غضب الله الديان العادل ضد الإنسان الشرير. نراه يدفع هو أجرة الإثم الذي فعلته أيدينا، لظىً ولهيباً، وهو - بصفته الضامن - كان يدفع الغرم الذي كان علينا نحن أن ندفعه، يوم قال للعدل الإلهي "احسب خطاياهم علي، أنا أوفي". ثم نجده بذلك يمحو بدمائه الصك الذي كان علينا، ويزيل بصليبه اللعنة التي كانت تهددنا، ويهدم بموته حائط السياج المتوسط الذي كان يفصل الإنسان عن أخيه، وبجسده يفتتح الطريق الحديث إلى محضر الله، وفي قبره يدفن خطايانا ويتركها هناك إلى الأبد. وفي كل ذلك نراه هناك منهمكاً في أعنف صراع، ويسجل أروع انتصار به مجد لله، وقهر الشيطان، وخلاص الإنسان!

لكنني بعد كل هذا أجدني أفعل كما فعل أمير الوعاظ سبرجون عندما قال: "لقد حاولت، قدر استطاعتي، أن أشرح هذه الصرخة العجيبة، لكنني الآن أشعر أني كنت مثل طفل صغير يحاول أن يشرح شيئاً عويصاً. ولهذا فإني أكتفي بأن أقول إن الله في ثلاث ساعات الظلمة ترك الرب يسوع على الصليب".

وأما إذا سألتني لماذا؟ فإن التفسير البسيط والمباشر هو أن المسيح أخذ مكاننا في الجلجثة. إلى حيث أوصلت الخطيةُ الإنسانَ، إلى ذات المكان أوصلت النعمةُ المخاصَ. لقد

دخل المسيح الظلمة ليكون لي أنا النور، وشرب كأس الأهوال لأشرب أنا كأس الهنـا، وتُـرك هو ليمكنه أن يقول لي في محبة عجيبة «لا أهملك، ولا أتركك»، وليكون لي الشركة الأبديـة معه في بيت الآب.

وعلـى طريـقِ الجلجثـةْ ظهـرتْ جمـوعُ الـزاحفينْ
والـرب يحمـلُ حِملَـهُ ويَـرى الشـبابَ السـاخرينْ
الحِمـلُ لـيسَ بحِملِـه الحِمـلُ حِمـلُ المجـرمينْ
والمريمـاتُ هَمَسـنَ فـي نَغـمٍ يقطَعـهُ الأنـينْ:

لِمَ كان ذاك؟

كـان ذاكَ لأنّ ذاكَ هـو الطريـقُ ولـيس غيـرَهْ
هو الطريقُ إلى خلاصِ الخـاطي مـن ويـلات شـرهْ
يشـربْ هـوَ كـأسَ العـذاب نيابـةً، يشـربْها مُـرّهْ
ويـذوقُ عنّـا المـوتَ، بـل ويقاسـي جَمـرَهْ

تـأملات في صرخة المسيح

إن لهذه الكلمات التي نطق بها المسيح بعد ساعات الظلام (كلمات الهجر) وضـع فريـد وقيمة خاصة.

فـ**أولاً**: هي بين عبارات المسيح السبع من فوق الصليب تشغل مكان الوسط، يسبقها ثلاث عبارات ويليها ثلاث عبارات.

ثانياً: إنها العبارة الوحيدة من بين عبارات المسيح التي وردت في أكثر من إنجيل واحـد

(متى ومرقس*).

ثالثاً: إنها اقتُبِسَت بنصها من أهم المزامير المسياوية (مزمور٢٢).

رابعاً: أن كِلا البشيرين متى ومرقس، نقل إلينا هذه العبارة للمسيح باللغـة الأراميـة، وبـذات الألفاظ التي خرجت من فم القدوس المتألم، قبل أن يكتبا معناها باليونانية، وكأنهما خشـيا أن يحجـب نقلها لليونانية شيئاً من مدلولها. أو كأنهما استخسرا ألا تُخلد ذات العبارة التي صرخ بها الـرب مـن عمق أعماق الألم نيابةً عنا.

ونريد الآن، بعد أن تأملنا في كلمات الصـرخة، أن نتأمل في مدلول الصرخة ذاتها.

> إن كانـــت صـــلاته في جثسيماني أظهرت عمق طاعته لأبيـه، فـإن صـرخته هنـا في الجلجثة تبيِّن سمو إيمانـه. إنـه لم يصـرخ مـن الله، بـل صـرخ إلى الله. فهـو مـتروك منـه، ويصـرخ إليـه. أ لـيس هـذا سمو الإيمان بعينه؟

أولاً: كمالات الفادي

١- **لغة الكتاب:** نلاحظ أولاً أن تلك الصرخة إنمـا هي اقتباس من المزمور ٢٢ الذي يُعتبَر لسـان حال المسيح وهو فوق الصليب. وقد كتب هذا المزمور داود النبي بوحي من الـروح القـدس قبل الصليب بنحو ألف عام. وعليه، فإن هـذه الصرخة ترينا أن الصلاة وكلمـة الله كلتيهمـا كانتا غاليتين وثمينتين جداً في نظر الرب، حتى وهو في أحرج موقف، وأصعب حالـة. فلقـد كانت لغته هي لغة الكتاب المقـدس. وكـان اتجاهه الطبيعي هو إلى الله، مثل إبرة البوصلة في اتجاهها دائماً إلى الشمال.

٢- **الثقة العظيمة في الله:** لكن هذه الصرخة تُرينا شيئاً آخر: فإن كانت صلاته في بستان جثسيماني أظهرت عمق طاعته لأبيه وخضوعه له، عندما قال له «ليكن، لا مـا أريـد أنا، بل ما تريد أنت» (مر٣٦:١٤)، فإن صرخته هنا في الجلجثة تبين سمو إيمانه. من

---

* وردت صرخة الترك من الله في إنجيل متى الذي يحدثنا عن المسيح كذبيحـة الإثـم، وإنجيـل مرقس الذي يحدثنا عن المسيح كذبيحة الخطية. فعندما صار المسيح فوق الصليب ذبيحة خطية وذبيحة إثم تركه الله الذي لا يطيق الخطية والإثم!

ثم أتت الصرخة التي تصاعدت من نفسه المتألمة «إيلي، إيلي، لَمَا شبقتني. أي: إلهي، إلهي، لماذا تركتني؟»، فهو لم يصرخ من الله، بل صرخ إلى الله. فهو متـروك منـه، ويصرخ إليه. أليس هذا سمو الإيمان بعينه؟ فنحن قد نتكل علـى الله عنـدما تكـون الشمس مشرقة، أما المسيح، فمن عمق ظلمة لم يعرف التاريخ البشـري نظيـراً لهـا، يقول: «إلهي». إنه لا يخاطبه قائلاً "يا الله"، بل «إلهي» ويكرر ذلك مرتين* «إلهـي، إلهي». لقد ثبت بحق أنه هو «رئيس الإيمان، ومُكمله» (عب١٢:٢).

٣- **الاتكال الكليّ على الله:** واللفظ الذي خرج من فم سيدنا هو «إيلـي، إيلـي». وكلمـة "إيل"، وهي أحد أسماء الجلالة في اللغة العبرانية، تعني "القويّ". فكأن المسيح ينـادى الله قائلاً: "يا قوتي، وسند إنسانيتي، الذي ليس لي سند سواك ولا قـوة غيـرك؛ لمـاذا تركتني؟"

لقد كان المسيح من بداية إنسانيته، من بطن أمه، متكلاً على الله. وهذا ما يخبرنـا بـه نفس المزمور ٢٢ الذي يبدأ بصرخة الترك مـن جانـب الله «إلهـي، إلهـي، لمـاذا تركتني؟» إذ يستمر الرب مخاطباً إلهه فيقول «لأنك أنت جذبتني من الـبطن، جعلتنـي مطمئناً على ثديي أمي. عليك أُلقيتُ من الرحم. من بطن أمي أنت إلهي». فهو متكِل على الله من بطن أمه. لكن ها هم أعداؤه يستهزئون به لهذا السبب نفسـه: إذ يقـول «كل الذين يرونني يستهزئون بي. يفغرون الشفاه، وينغضون الرأس قائلين: اتكل على الرب فلينجهِ». لكنه، رغم ذلك، ما زال متمسكاً بإلهه، فيقول له «لا تتباعد عنـي لأن الضيق قريب. لأنه لا معين»، وأيضاً «أما أنت... فلا تبعـد. يـاقوتي أسـرع إلـى نصرتي».

ثانياً: البدلية والفداء

نلاحظ أن الرب اعتاد في حياته أن يصلي إلى الله مخاطباً إياه «يـا أبتـاه»، أو «أيهـا الآب». أما هنا، في صرخة المسيح في ساعات الظلمة، فلا يقول له «يا أبتاه»، بل ها نحـن

---

* يعرف البعض أن الله نادى سبعة أشخاص بأسمائهم مكررة مرتين، وهـم: إبـراهيم، يعقـوب، موسى، صموئيل، مرثا، سمعان، شاول. وكان تكرار الاسم يـدل علـى اهتمـام الله العميـق والخاص بهؤلاء الأشخاص. أما هنا فنجد الإنسان الكامل هو الذي ينادي الله باسـمه مـرتين، وكان هذا التكرار يدل على تكريس عميق لله وحب كامل له!

نسمعه لأول مرة يقول: «إلهي، إلهي*». ذلك لأن المسيح، في هذا الموقف، كان ممثلاً للإنسان أمام الله، ديان كل الأرض. هنا، وفي هذا السؤال، نفهم أحد معاني الكفارة.

يقول المسيح «لماذا»، وعندما يسأل المسيح «لماذا»، ولا يتلقى على سؤاله هذا جواباً، فلا أتوقع أني أنا المحدود يكون لدي الجواب. ولكننا مع ذلك، إذا سرنا قليلاً في المزمور الذي يُفتَتَح بصرخة المسيح هذه، فإننا نجد في العدد الثالث منه ما يمكننا أن نعتبره الرد على هذا السؤال الذي بلا جواب، إذ يقول «وأنت القدوس». فالله لم يترك المسيح ظُلماً. حاشا! بل تركه لأنه القدوس. أتسأل: ولماذا الله - باعتباره القدوس - يترك المسيح فوق الصليب؟ الإجابة: ليس لأن في المسيح أي شيء لا يتوافق مع الله وقداسته. كلا البتة، بل لأنه – تبارك اسمه – قَبِلَ أن يُمثل الخطاة، وكانت خطايانا موضوعة عليه في ذلك الوقت.

يستطرد المسيح فيقول «وأنت القدوس الجالس بين تسبيحات إسرائيل». فكيف لله القدوس أن يسكن وسط تسبيحات شعب خاطئ إلا على أساس الكفارة؟ أليس هذا أمراً عجيباً ومجيداً؟! لقد تُرِكَ ليكون لنا نحن علاقة وشركة مع الله. وفي المزمور عينه الذي يبدأ بصرخة الترك، نقرأ عن تسبيحات الشركة، فيقول المسيح «أُخبر باسمك إخوتي، وفي وسط الجماعة أسبحك». وتتكرر التسبيحات في هذا المزمور من جموع المفديين (ع٢٢،٢٣،٢٥،٢٦)، وكلها مُبناةً على صرخة الفادي في أول المزمور. لذا كان ينبغي أن يذوق المسيح الموت بكل رعبه وهوله، يذوقه بنعمة الله، ليكون هو بنفسه الكفارة لشعبه.

ثالثاً: بشاعة الخطية

إن هذه الصرخة لا ترينا فقط برّ الله وقداسته اللذين لم يظهرا في كل التاريخ كما ظهرا في الجلجثة، بل ترينا أيضاً الخطية في بشاعتها. ولئن كان بوسعنا أن نرى بعضاً من نتائج الخطية المروعة إذا تأملنا في ويلات الحروب والأمراض، إذا نظرنا إلى المقابر وإلى

---

* لم يصرخ المسيح من فوق الصليب إلى "يهوه"، بل إلى الله "إيلوهيم"، وذلك لسببين:

١- اسم "يهوه" هو اسم علاقة الله بشعبه إسرائيل. والمسيح فوق الصليب لم يكن يتألم لأجل خطايا إسرائيل فحسب، بل لأجل كل الخطايا التي ارتُكبت من بداية التاريخ.

٢- لأن هذه الصرخة تصور لنا البعد الذي وضعت الخطية فيه الإنسان، وليس العلاقة الخاصة والقرب الذي يُستفاد من اسم "يهوه".

السجون، وإذا ألقينا نظرة على المُحطمين في الحانـات والمـراقص ودور الفجـور ونـوادي القمار؛ فإننا لن نرى الخطية في بشاعتها حقاً كما نراها في الجلجثة.

لقد ظهرت الخطية في بدايتها أنها تدمير للنفس، وفي تطورها أنها تدمير للغير، وفي ذروتها تدمير لابن الله. ففي الجنة نرى بداية الخطية وكيف دَمر الإنسان نفسه، وخـارج الجنـة نـرى الخطية في تطورها عندما قام قايين على هابيل وقتله. وفي ذروتها، نرى ارتجاج الأمـم وتَفَكـر الشعوب في الباطل، عندما قاموا معاً على الرب وعلى مسيحه. ولكن سواد الخطية القاتم نميـزه، في لونه الحقيقي، في ساعات الظلمة الرهيبة، عندما تُركَ المسيح من الله فوق الصـليب إذ جُعِـلَ خطيةً لأجلنا.

آه، أيمكننا بعد ذلك أن نهادن الخطية التي سببت هذه الأحزان لسيدنا؟ أيها الشـر، إن كـل الذين يحبون الرب يبغضونك. أيتها الخطية، إنك مستهجنة مستقبَحة عند كل القلوب التـي ملـك المسيح بالحب عليها، فلقد كنتِ سبب صلب سيدنا ومعبود قلوبنا، وبسببك صرخ صـرخته المُـرة «إلهي، إلهي لماذا تركتني؟

رابعاً: مصير الخطاة الرهيب

إن ظُلمة الجلجثة تعبر عن ظلام المصير التعس لكل من يـرفض ابـن الله، وصـرخة المسيح إذ تركه الله، تصور رعب اليأس الأبدي الذي ينتظر كل من يرفض خلاصاً عظيماً هذا مقداره أعده المسيح في الجلجثة.

هناك نبوة في سفر عاموس تتحدث عن مصير تعس لتلك الأمة التـي رفضـت مسـيّاها وقتلته، فيقول النبي «ويكون، في ذلك اليوم، يقول السيد الرب، أني أغيب الشمس في الظهـر، وأقتم الأرض في يوم نور» (عا٨:٩). هذا هو ما سوف يحدث في يوم عتيد مع تلـك الأمـة التي لم تعرف زمان افتقادها، واحتقرت مخلّصها وفاديها. فيا قارئي العزيز، هل أنـت واحـد من أولئك؟ هل تعرف أنت زمان افتقادك؟ إن كل من يرفضون المسيح سوف يطويهم ظلام رهيب «الظلمة الخارجية، هناك يكون البكاء وصرير الأسنان». إن ما تحملـه المسـيح فـي ساعات الظلمة من نوعي الألم يتجاوب مع نوعي الآلام التي سيقاسيها الأشـرار فـي بحيـرة النار: وهي آلام إيجابية وأخرى سلبية. فهم سيحسون بالعذاب الواقع عليهم، وبالخسارة التـي لحقت بهم إلى أبد الآبدين. وهكذا المسيح هنا: غضب الله واقع عليه، وابتسـامة رضـاه قـد فارقته.

وعلى العكس من ذلك، فإنه بالنسبة للمؤمنين، عبرت الظلمة برعبها على بديلهم الكـريم، والنور الحقيقي الآن يضيء. وسبيلنا كنور مشرق، يتزايد وينير إلى النهار الكامل. وفي هذا النهار الأبدي لن يغيب عنا البتة ضياء محياه الكريم (رؤ٢٢:٤).

> لقد ظهرت الخطية في بدايتها أنها تدمير للنفس، وفي تطورها أنها تدمير للغير، وفي ذروتها تدمير لابن الله. ولكن سواد الخطية القاتم نميزه، في لونه الحقيقي، في ساعات الظلمة الرهيبة، عندما تُرِكَ المسيح من الله فوق الصليب إذ جُعِلَ خطيةً لأجلنا.

وأخيراً أقول: إن صرخة المسيح هذه تغلق الباب تماماً على الواهمين الذين يرجون خلاصاً عاماً وشاملاً لجميع البشر، وبغض النظر عن موقفهم من حمـل الله الكريم، تحت زعم أنه رحيم. نعم، الله رحـيم جـداً، ورحمته العجيبة ظهرت في أناته على البشر واحتماله لشرورهم كل هذه الآلاف من السـنين. وهـو لـيس رحيماً فقط، بل هو أيضاً محبٌ، ومحبته تبرهنت فـي إرسال ابنه الوحيد وبذله لأجلنا علـى الصـليب، ولا برهان على محبة الله أقوى من صليب المسيح. لكـن الصليب بعينه يعطينا برهاناً لعدالة الله وبره. فإنْ كان الله لم يتساهل مع الخطية عندما وُضِعَت علـى ابنـه، فماذا سيفعل بك يا من تحتقر محبته، وتـرفض ابنـه الذي قدمه فدية لأجلك؟

حِسَـابٌ، عِقَـابٌ فِـي يَـومٍ قَرِيـبْ
يَا مَـنْ قَـد حَسِـبتَ دِمَـاءَ المَسِـيحْ
سَـيَبْقَى الصـلِيبُ لِيَنْجُـو البَعِيـدْ

يا مَـن دُسـتَ ابـن الإلـهِ الحبيـبْ
لا تَكْفِي لا تَشـفِي احْتَقَـرْتَ الـذبيحْ
وَأَنْـتَ سَـتَبْقَى فِـي مَـوْتٍ أَكِيـدْ

فَمَـاذَا سَـتَفْعَلْ فِـي يَـوْمْ الحِسَـابْ
بِـدُوْن الصـلِيبِ، بِـدُوْن الفِـدَاءْ
لَسَـوْفَ تَصِـيحُ، وَيَعْلُـو البُكَـاءْ

وكيـفَ تـراهُ فـي يَـومِ العِقَـابْ؟
بِغَيْـر المَسِـيح، بِغَيْـر الـرِدَاءْ
وَلَـيْسَ يِنَفْـع، وَلَـيْسَ رَجَـاءْ

العبارة الخامسة من فوق الصليب

كلمة الألم

بعد هذا رأى يسوع أنَّ كل شيء قد كمل، فلكي يتم الكتاب قال:

أَنَا عَطْشَانُ.

وكان إناء موضوعاً مملواً خلاً، فملأوا إسفنجة من الخلِّ، ووضعوها على زوفا، وقدَّموها إلى فمه

(يو ١٩: ٢٨، ٢٩)

هذه العبارة، بين عبارات المسيح السبع من فوق الصليب، هي الوحيدة التي تخُـصّ سـيدنا وحده دون سواه. فكلماته الثلاث الأولى في ساعات النور وجّه واحـدة لأبيـه، والثانيـة لأمـه وليوحنا، والثالثة للص التائب. ثم أتت العبارة الرابعة موجّهة إلى الله، والسادسة إلى كـل مـن يعنيه الأمر، والسابعة والأخيرة إلى أبيه أيضاً. أما هذه فهي ليست موجّهة إلى أحد، ولا تتحدث عن أحد. إنها فقط تُعبر عن إحساسه هو وحاجته هو. ثم إن هذه العبـارة هـي أصـغر كـل العبارات من فوق الصليب، فهي في اللغة اليونانية: اللغة الأصلية للعهد الجديـد، وردت كلمـة واحدة صغيرة، من مقطعين اثنين، ومن أربعة حروف. لكنها رغم هذا، شأنها شأن كل عبارات المسيح من فوق الصليب، عبارة عميقة وعظيمة.

وسنتأمل هذه الكلمة في خمس ثنائيات:

حقيقة ناسوت المسيح، وبرهان لاهوته

أما أولاً، فإن هذا النطق يعبر بوضوح عن حقيقة ناسوتية المسيح. فعندما صرخ يسـوع قائلاً «أنا عطشان»، كانت تلك الصرخة دلالة على أن المسيح إنسان بكل معنى الكلمة، فحاشـا لله أن يعطش، لكنه في غِنى نعمته، ولإتمام عمل الفداء قَبِلَ، وهـو الله: الكلمـة الأزلـيّ، أن يصير إنساناً. إنه لم يَصِرْ مجرد روح أو خيال، بل كان إنساناً بكل معنى الكلمة. ولهذا فقـد تكون له جسدٌ، بالروح القدس، في بطن المُطوبة العذراء مريم، ثم أخذ هذا الجسد ينمو بوصفه الإنسان الكامل الذي شاركنا البشرية في كل شيء، عدا الخطية: فجاع، وتعب، ونـام، وبكـى، وصلى (مت٤:٢؛ يو٤:٦؛ مر٤:٣٨؛ يو١١:٣٥؛ مر١:٣٥)، وها نحن نراه فوق الصليب، وقد يبس لسانه من العطش يصرخ قائلاً «أنا عطشان»! هذا كله فعله الإنسان يسوع المسيح.

لكن صرخة المسيح تلك بعينها هي في الوقت نفسه البرهان على لاهوته، وهذا ما نفهمه من القرينة التي وردت فيها هذه العبارة، إذ يقول البشير: «بعد هذا، رأى يسوع أن كل شيء قد كمل، فلكي يتم الكتاب قال: أنا عطشان». هنا نجد أمرين يؤكدان لاهوت المسيح: فأولاً هو رأى أن كل شيء قد كمل. وهذا معناه أنه - تبارك اسمه - كان يميّز ويدرك كل الأمور التي جرت والتي تجري. فالوحي لا يقول إن أحداً أخبره، بل يقول إنه رأى. وهي الكلمة اليونانية عينها التي تُرجِمَت في هذا الإنجيل عدة مرات «عَلِم*». ما الذي رآه، أو بالحري عَلِمَه، ذلك المصلوب؟ لقد رأى كل شيء، ومِن ثَم علم أن كل شيء قد كمل. أيمكن أن يكون إنساناً عادياً ويحيط علماً بكل شيء؟ أيمكن وهو في مثل تلك الآلام الرهيبة - لو كان هو مجرد إنسان - أن يُقال عنه إنه علم أن كل شيء قد كمل؟

لكن ليس فقط رأى وعلم أن كل شيء قد كمل، باستثناء أمرٍ واحدٍ صغير، بل إنه أيضا نطق بكلمة واحدة قصيرة، جعلت هذا الشيء الوحيد الذي لم يكن قد تم بعد يتم في الحال.

نعم، لقد مرّ بفكره وذهنه على كل الأحداث الرهيبة التي تمت معه في تلك الساعات، فرأى أن النبوات العديدة التي سبقت عنه قد تمت جميعاً. فمثلاً: خيانة أحد تلاميذه له كما ورد في المزمور ٤١:٩، وتَرْك كل تلاميذه له كما يذكر المزمور ٣١:١١، وأيضاً زكريا ١٣:٧، واتهامه زوراً كما يشهد مزمور ٣٥:١١، وسوقه كشاة إلى الذبح وكنعجة صامتة أمام جازيها كما يقرر إشعياء ٥٣:٧، واقتناع الحاكم ببراءته ومع ذلك أُحصِيَ مع أثمة كما أشار إشعياء ٥٣:٩،١٢، وصدور الحكم بصلبه كما يقول المزمور ٢٢:١٦، واستهزاءهم به كما يوضح المزمور ١٠٩:٢٥، وتهكمهم عليه، بل وتحديهم له لينزل مِن على الصليب كما يرد في المزمور ٢٢:٧،٨، ثم اقتسامهم ثيابه بينهم وإلقاءهم القرعة على لباسه (مز٢٢:١٨)، وشفاعته في المذنبين (إش٥٣:١٢)، وتركه من الله (مز٢٢:١). هذا كله وغيره قد تم فعلاً. لكن بقيت نبوة صغيرة لم تتم بعد، هي تلك الواردة في المزمور ٦٩:٢١ «يجعلون في طعامي علقماً، وفي عطشي يسقونني خلاً». لهذا قال المسيح «أنا عطشان»، وفي الحال، كما يقول البشير «ملأوا اسفنجة من الخل، وقدموها إلى فمه». فتم كل ما عنه كُتِب.

والواقع أن كون المسيح هو الله وهو الإنسان في آنٍ واحدٍ معاً لَهي حقيقة طالما حيرت الكثيرين وأعثرتهم. لكن هذا الحق العظيم لم يعلنه الله لنا في كتابه العظيم ليكون مادة لجدل

---

* انظر مثلاً ١٦:٣٠؛ ١٨:٤؛ ٢١:١٧.

الإنسان، بل ليقبَله بالإيمان، ويتجاوب معه بالسجود والعرفان. وسعيدٌ كل شخص عرف هـذا الحق الثمين، الذي هو بإجماع كل المؤمنين، كما هو مكتوب «وبالإجماع، عظـيمٌ هـو سـر التقوى: الله ظهر في الجسد» (١تي٣:١٦).

لقد صار المسيح إنساناً دون أن يعني هذا أن الله تحول إلى إنسان، ولا أن المسـيح كـان هنا على الأرض مجرد إنسان، لا أكثر ولا أقل. فلقد بقيَ في لاهوته كما هو من الأزل وإلـى الأبـــد. لكنـــه اتخـــذ بالإضـــافة إلـــى ذلـــك جســـداً

وشاركنا في البشرية، ما خلا الخطية. هذه الحقيقة: أعني اتحاد اللاهوت بالناسوت في شخص واحد، وردت حتى في أسفار التوراة التي بين أيدي اليهود، فيقول إشعياء النبي «لأنه يُولَد لنـا ولد (مشيراً إلى ناسوت المسيح)، ونُعطَى ابناً (مشيراً إلى لاهوته)، ... ويُدعَى اسمه **عجيبـاً**، مشيراً، إلهاً قديراً، أباً أبدياً، رئيس السلام» (إش٩:٦). ويقول ميخا عن بيت لحم، القرية التي وُلِدَ فيها المسيح «أما أنت يا بيت لحم أفراتة، وأنت صغيرة أن تكوني بين ألوف يهوذا، فمنـك يخرج لي (هنا يشير إلى ناسوت المسيح) الذي... مخارجه منذ القديم، منذ أيام الأزل (إشـارةً إلى لاهوته)» (مي٥:٢).

ومع أن هذه الآيات وغيرها موجودة في أسفار التوراة التي ما زالت إلى اليوم بين أيـدي اليهود، لكن حتى في أيام المسيح كان غير المؤمنين من اليهود متعثرين أمام هذه الحقيقة، ممـا جعل المسيح يسألهم ذات مرة: «ماذا تظنون في المسيح؟ ابن مَن هو؟ أجابوه: ابن داود. فقال لهم: فكيف يدعوه داود بالروح رباً قائلاً: قال الرب لربي اجلس عن يميني حتى أضع أعـداءك موطئا لقدميك؟» فلم يستطيعوا الإجابة. أما المؤمن، الذي أنار الروح القدس ذهنه، فإنه يعرف أن المسيح بالجسد هو ابن داود، لكنه هو في الوقت نفسه رب داود. ويوضح المسـيح نفسـه هذه الحقيقة في آخِر أصحاح في العهد الجديد، بل في آخر صفحة في الكتاب المقدس إذ يقـول «أنا أصل وذرية داود» (رؤ٢٢:١٦). إنه أصل داود لأنه خالقه، وذرية داود لأنه نسله، وقـد وُلِدَ منه!

لكن هذا الشخص العظيم قَبِلَ أن يصير إنساناً ليخلصنا، إذ قَبِلَ أن يفدينا بذبيحـة نفسـه. وذاك الذي لا يكل ولا يعيا (إش٤٠:٢٨) تعب مرة من السفر ليخاص إنسانة مسـكينة أتعبتهـا الخطية. وذاك الجاعل السحاب مركبته (مز١٠٤:٣) عبر من شطٍ إلى شطٍ في بحيرة طبريـة

وذهب إلى القبور ليخاص إنساناً بائساً أذلته الأرواح الشريرة. وذاك المُعلق الأرض على لا شيء (أي٢٦:٧) قَبِلَ أن يُعلق فوق الصليب، ومن هناك يقول «أنا عطشان» لِيَهَب كل ظامئ الماءَ الحي.

عمق افتقار الفادي، وشدة آلامه

تأمل، عزيزي القارئ، في طريق ذلك الفادي المجيد في هذا العالم. ففي بدايته، لم يكن له مكان في المنزل، بل بدأ حياته في مذود للبهائم. وفي نهايته، لم يكن له حتى كوب ماء يروي غليله. يا لها من صورة للاتضاع والفقر! فهو لم يكن فقط عطشاناً، بل أيضاً لا يقوى على إرواء غليله، لأن قدميه مُسمرتان، ويديه مسمرتان. وعندما صرخ قائلاً «أنا عطشان» لم يقدموا له الماء ليسقوه، بل قدموا له الخل!

يا له من افتقار! أ إلى هذا الحد المريع من الفقر وصل المخلص المعبود وهو فوق الصليب؟! إنه هنا عطشان. وذاك الذي بدأ خدمته الجهارية بالجوع القارص ها هو هنا يختمها بالعطش الرهيب!

يا له من افتقار! أ إلى هذا الحد المريع من الفقر وصل المخاص المعبود وهو فوق الصليب؟! إننا نراه هنا بلا ثوب يستر جسده، بلا رفيقٍ أو حبيبٍ، بل وبلا أبطال من حوله يشقون المحلة ليستقوا الماء ليقدموه إلى سيدهم المهيب (قارن ٢صم١٦،٢٣:١٥). إنه هنا عطشان. وذاك الذي بدأ خدمته الجهارية بالجوع القارص (مت ٤: ؛ لو٤:٢) ها هو هنا يختمها بالعطش الرهيب!

فهل تعرف، أيها العزيز، مَنْ هذا الذي وصل إلى مثل هذا الحد من الفقر؟ أ تعرف مَن ذا الذي يقول هنا «أنا عطشان»؟ إنه مَن تُمَجده وتُسَبحه جماهير الملائكة في السماء. أ فليس عجيباً أن موضوع شِبَع الآب ومسرته يقول «أنا عطشان»؟! والذي يتحدث الكتاب عن سموه وعظمته فيقول «ليس لعظمته استقصاء» (مز١٤٥:٣) يحتاج إلى رشفة ماء! وأن «الصانع السماوات والأرض» نراه فوق الصليب بحنك يابس!

يتحدث عنه الكتاب فيقول «المُفَجر عيوناً في الأودية، بين الجبال تجري، تسقي كل

حيوان البر، تكسر الفراء ظمأها» (مز١٠٤: ١٠، ١١). وفي أيام موسى في القديم «شق صخوراً في البرية وسقاهم كأنه من لجج عظيمة. أخرج مجاري من صخرة وأجرى مياها كالأنهار» (مز٧٨: ١٥، ١٦) وذلك مُدّة أربعين سنة! بل إنه في أيام جسده قال للمرأة السامرية «لو كنتِ تعلمين عطية الله، ومَن هو الذي يقول لكِ أعطيني لأشرب، لطلبتِ أنتِ منه فأعطاك ماءً حياً» (يو٤: ١٠). ووقف مرة في أورشليم وسط جمع حاشد لينادي قائلاً «إن عطش أحدٌ فليُقبِل إلي ويشرب» (يو٧: ٣٧)، لكنه هنا يقول «أنا عطشان». وهكذا يخرج مِن العالم عطشان.

إنه الله العظيم الذي «كال بكفه المياه» (إش٤٠: ١٢)، كما أنه هوالذي سواقيه ملآنة ماء، يروى أتلام الأرض وبالغيوث يحللها (مز٦٥: ٩، ١٠)، بل إنه هو نفسه «ينبوع المياه الحية» (إر٢: ١٣؛ ١٧: ١٣) ها هو هنا يقول «أنا عطشان».

له ميازيب السما	وكل غمر قد طما
لكنه من الظما	قال أنا عطشان

لقد أخلى نفسه، ووُجِدَ في الهيئة كإنسان (في٢: ٧، ٨). لقد افتقر وهو غنيٌ (٢كو٨: ٩). وأي فقرٍ هذا الذي وصل إليه؟ تأملي يا نفسي في تنازُل ذاك المجيد، وفي افتقار ذلك الغنيّ. ما أوسع الهوة، وأبعد المسافة، بين رب المجد على العرش والمصلوب على الصليب، بين ذاك «المُسقِف علاليه بالمياه» (مز١٠٤: ٣) وذاك الذي نسمعه هنا يقول: «أنا عطشان»!

يا لها مِنْ صرخةٍ منها ارتعش	قلبي، بل والفكرُ حارَ واندهشْ
صرخةُ الإنسان مِنْ فقرٍ إلى	قطرةِ الماءِ التي تُطفي العطشْ
كيف ربّي قد عطشتَ مرّةً	وبك الأحياءُ طُرّاً تنتعشْ
قد صرختَ «أنا عطشان» لكي	يرتوي الخاطئ منك ويعيشْ

لكننا في هذا النطق نرى أيضاً شيئاً آخر؛ لا عمق افتقار الفادي فحسب، بل أيضاً شدة آلامه وقسوتها. فمن بين الكلمات السبع التي نطق بها - له المجد - من فوق الصليب، كان هذا النطق هو الوحيد الذي عبر به عن آلامه الجسدية. وفي خلال رحلة التعذيب القاسية لم

ينطق المسيح بكلمة تعبر عن تلك الآلام الرهيبة سوى هذه العبارة.

لَكَم تحمل الرب يسوع فوق الصليب من آلام! فهو لما وصل إلى الجلجثة كان في إعياءٍ وإجهادٍ شديدين بسبب أحداث الليلة الماضية، إذ كان قد تحدث مع تلاميذه حديث الوداع الطويل والذي شغل نحو خمسة أصحاحات كاملة من إنجيل يوحنا، وبعده مضى إلى بستان جثسـيماني حيث كان في جهاد وكان عرقه يتساقط كقطرات الدم إلى الأرض، ومن هناك قُـبِضَ عليـه، وسِيق للمحاكمات المتتالية: المحاكمة الدينية في جلساتٍ ثلاث، ثم المحاكمة المدنية في جلسـاتٍ ثلاث أيضاً. ثم الجَلد الرهيب القاسي، ثم حمْل الصليب الثقيل، والخـروج بـه إلـى خـارج أورشليم حيث تمت عملية الصلب القاسية الوحشية. ولما صُلِبَ قضى فـوق الصـليب سـت سـاعات وكـان مـن وقـع معاناتـه مـا عبـر عنـه

في المزمور «يبست مثل شقفة قوتي، ولصق لساني بحنكي» (مز٢٢:١٥).

ومع اعتقادنا بأن الآلام الكفارية التي أشرنا إليها في نطق المسيح السابق «إلهي، إلهـي، لماذا تركتني؟» هي جوهر الصليب، وأن ما احتمله المسيح من يد العدل عندما جُعِـل خطيـةً كان أقسى بكثير جداً مما احتمله من يد البشر، فلئلا يجنح الفكر البشري إلى التطـرف الآخـر فيستصغر آلام المسيح الجسدية، بل قد وصل الأمر ببعضهم أن يتوهموا أن المسيح لم يشـعر بتلك الآلام، فإن ذلك النطق الخامس للمسيح من فوق الصليب يبعد عنا هـذا التصـور غيـر الصحيح.

وليس فقط بسبب شدة الآلام الجسدية وما عاناه جسد المسيح القدوس من آلام كان إحساسـه بالعطش، بل أيضاً من تأثير تعبه النفسي. يقول سليمان الحكيم «الروح المنسحقة تجفف العظـم» (أم١٧:٢٢)، ويقول داود في المزمور ٣٢:٤ «تحولت رطوبتي إلى يبوسة القيظ»، فهذه الصرخة، إذاً، تعبر أيضاً عن عمق آلام روح المسيح في داخله.

بل إننا نتجاسر ونقول إن ثمة علاقة بين هذا النطق وآلام المسيح الكفارية. فنحن نلاحظ أن كلاً من متى ومرقس ربط بين شرب المسيح الخل قبل موته، وصرخته الرهيبة «إلهـي، إلهـي، لماذا تركتني؟»، وكيف ظن الواقفون أنه ينادي إيليا ليخلصه. لكن الحقيقة أنه لـم يكـن ينتظـر خلاص إيليا، بل هو من كان إيليا ينتظر خلاصه. إنه هو من كان يرمز إليه الثـور الثـاني فـي ١ملوك ١٨: ٣٠-٣٨ الذي سقطت عليه نار الرب وأكلته مع الحطب والحجارة والتراب، ولحست

كل المياه. ولهذا فقد قال هنا «أنا عطشان».

لكن تأمل، يا أخي الحبيب، كيف تجاوب البشر مع ذلك المحب الودود! وكم كانت كراهيتهم له بغير حدود: فحتى وهو يموت يقدمون له الخل بدل الماء!

عزيزي: إن جهنم، ذلك المكـان المـروع الـذي سيُطرَح فيه كل الخطاة غير التـائبين، يصـورها لنـا الكتاب المقدس بأنها ظلام ووحدة وعطـش. والمسـيح فوق الصليب احتمل ذلك كله لأجلنا. كان نطقه السـابق تعبيراً عن الظلمة والوحدة، فمن أعماق الظلمة صـرخ «إلهي، إلهي، لماذا تركتني؟»، والآن بنطقـه الخـامس يعبر عن العطش «أنا عطشان». وبينما السماء منعـت عنه ومضة من النور، أنكرت الأرض عليه قطرة مـن الماء!

لا تتـذمر، لـو لم يكـن لـديك سـوى المـاء لتشـربه، لأن سـيدنا وهـو يمـوت لم يحـظ بهذه النعمة! ولا تتـذمر لـو كـان طعـم الـدواء في فمـك مُرّاً لأن سـيدنا أعطـوه قبيـل موته الخل، فشربه ثم مات!

هذا ما عاناه المسيح لأجلنا. لقد تحمل الألم المرير والعطش القاسي ليرحمنا من العطش الأبدي. ألا تنظـر الآن إلى الذي صُلِبَ من أجلك؟ هل تنظر إليه بالإيمان، ذاك الذي أحبك، أم أنك ترفضه وتمضي إلى الظلمة الأبدية والعطش الأبدي؟

والآن دعني أتحول بالحديث إلي كل متألم أو مُجرب. عزيزي، إذا كنـت تجتـاز فـي آلام مريرة وتجارب قاسية، إذا كنت تعاني من جرّاء فقر مدقع وحاجة شديدة، فتَفَكر في المسـيح الـذي سبق أن جاز في أرض الشقاء، والذي جاء إلى مركز بؤسنا. إن ذاك الذي رأينـاه فـي الصـليب يصل إلى عمق الفقر ويقاسي شدة الألم، يقدر أن يرثي لنا لأنه مُجرب في كل شيء مثلنا بلا خطية. وفيما هو قد تألم مجرباً يقدر أن يعين المُجربين (عب٢:١٨).

لقد سُر - تبارك اسمه - بإرادة الآب، وقَبِلها، حتى لو كانت العطش الشـديد. قـال أحـد رجال الله: "لا تتذمر، لو لم يكن لديك سوى الماء لتشربه، لأن سيدنا وهو يموت لـم يحـظَ بهـذه النعمة"! وقال آخر: "لا تتذمر لو كان طعم الدواء في فمك مُرّاً لأن سيدنا أعطـوه قبيـل موتـه الخل، فشربه ثم مات"! نعم، لا تتذمر بل ضَعْ الشجرة المقطوعة في وسط مرارة قلبـك: ضـع المسيح وهو فوق الصليب في ظروفك المحزنة المريرة، وسرعان مـا سـتتحول المـرارة إلـى

حلاوة.

لكن لا يكفي ألا نتذمر، بل ليت لغتنا تكون لغة الشكر. ففي الواقع، مـا أقـل شـكرنا! أتُرانا نفكر في كأس الماء التي نشربها لكي نشكر الله عليها؟ بل كم لدينا ما هو أكثر بكثيـر من كوب الماء، ومع ذلك ما أقل شكرنا! أ ولا يكفي التلميذ أن يكون كمعلمه، والعبد كسـيده؟ لكنه في نعمته لا يسمح لنا أن نصل إلى ما وصل إليه هو من فقر واحتياج.

كمال الكتاب المقدس، وكمال عمل المخلص

كم يسعدنا أن بين أيدينا كتاب الله العظيم، الله المسيطر على كل الأمـور والـذي يعلـم النهاية من البداية. ولقد أخبرنا الله بما سوف يحدث، وسجله في كتابه العظـيم، هـذا الكتـاب الذي لا يمكن أن يُنقَض المكتوب فيه على الإطلاق.

لقد تمت كل النبوات التي تتحدث عن اتضاع الرب وآلامه في دقة عجيبة. لا في صورة روحية - كما يفتكر قوم يظنون أن نبوات الكتاب لا تُؤخذ حرفياً بـل روحيـاً - كـلا، فكـل النبوات التي تتحدث عن اتضاع المسيح وآلامه تمـت بحسـب معناهـا البسـيط والصـريح والواضح. وإن نُطق المسيح الخامس من فوق الصليب ينفي تمامـاً فكـرة روحنـة النبـوة. فالواقع أنه لو كانت معاني النبوة لا تُؤخذ حرفياً، بحسب معناها الحرفي والـدقيق، لَمَـا كـان هناك لزوم لنُطق المسيح هذا على الإطلاق، لأن المسيح في كل حياتـه ذاق المـرار وشـرب الخل معنوياً. لكن النبوة التي وردت في المزمور ٢١:٦٩، مع أنها في ذاتها نبـوة صـغيرة، وقد تبدو في أنظارنا غير هامة، فها هنا كما في كل أمر آخر «لا يمكن أن ينقض المكتـوب» (يو٣٥:١٠). تقول هذه النبوة بصريح العبارة «وفي عطشي يسقونني خلاً». وكان لا بـد أن تتم تلك النبوة بكل دقة، بلا أدنى تجاوز أو تقريب. ولهذا جاء هذا النطق الخامس «لكـي يـتم الكتاب».

لعلنا نتذكر أن المسيح وُلِدَ في بيت لحم، كما تقول النبوة في ميخا ٢:٥. ولم يكـن هـذا الأمر ليحدث لو أن الأمور سارت في مجرياتها الطبيعية، لأن المُطوبة العذراء مـريم كانـت تسكن الجليل في شمال فلسطين. فحدث الاكتتاب العالمي (أي التعـداد أو الإحصـاء) بـأمر الإمبراطور، وتحرك الآلاف والملايين من بلاد إلى بلاد، ولم يكن ذلك كله في حقيقة الأمر إلا

لتتميم نبوة واحدة عن مكان ميلاد المسيح كان لا بد أن تتم حرفياً. وكما حدث في بداية حياته، حدث أيضاً عند الصليب حين جاء النطق الخامس كيما تتم إحدى النبوات عن عطشه وشـربه الخل. نعم، لكي تتم حَرفيّاً كل النبوات من المهد إلى اللحد.

إن كلمة الله ودرج الكتاب يحدثاننا بأن المسيح كان سيعطش، وأن الناس الأردياء كـانوا سيقدمون الخل له في عطشه، وكان هو سيشربه. وكان لا بد أن يتم ذلك بكل دقة. وهنا نحن لا نرى فقط دقة المكتوب، بل أيضا تقدير الرب يسوع الكامل للمكتوب. إنه هو الذي جـاءت عنه النبوة «أن أفعل مشيئتك يا إلهي سررتُ، وشريعتك في وسط أحشائي» (مز٤٠:٨). لقـد كان المسيح يُقدر الكلمة تماماً، ويركن إليها بلا حدود: بها قاوم إبليس في التجربة فـي البريـة عندما رد عليه ثلاث مرات «مكتوب» ففر الشيطان منه. كما فعل الشيء عينه في محادثاتـه مع قادة الأمة من الفريسيين أو الصدوقيين. لقد رد عليهم من المكتوب، وأفحمهم. وها نحـن مرة أخرى، في مشهد الصليب نرى أيضاً إركانه الكليّ إلى المكتوب.

لقـد كـان المسـيح علـى الصـليب يعـايش جـو الأحـزان والآلام المـذكورة فـي

المزمور ٦٩. هذا المزمور المؤثر الذي فيه نستمع إلى صرخات المسيح «خلصني يـا الله، لأن المياه قد دخلت إلى نفسي. غَرقتُ في حمأة عميقة، وليس مقر. دخلت إلى أعماق المياه، والسيل غمرني. تعبتُ من صراخي. يبس حلقي، كلت عيناي من انتظار إلهي، أكثر من شـعر رأسـي الذين يبغضونني بلا سبب. اعتز مُستهلكي أعدائي ظلماً. حينئـذٍ رددت الـذي لـم أخطفـه». ويستمر المزمور في وصف آلام المسيح المتنوعة إلى أن يصل إلى القول «العار قد كسـر قلبـي فمرضتُ، انتظرتُ رقةً فلم تكنْ، ومُعَزين فلم أجد. ويجعلون في طعامي علقماً» ثم أخيـراً، فـي آخر قائمة الآلام يقول «وفي عطشي يسقونني خلاً».

ويجب أن نُميز بين ما سجله البشير متى في إنجيله مِن أنهم قدموا للمسـيح فـي بدايـة الصليب خلاً ممزوجاً بمرار، وكانت هذه عادة يقدمون بمقتضاها للمحكوم عليهم بالصلب مـادةً مُسكِرَةً تخفف قليلاً من آلامهم. والمسيح رفض أن يأخذه. يقول الوحي «لما ذاق لم يُـرد أن يشرب» (مت٢٧:٣٤). لقد ذاق مرارته لكنه رفض ابتلاعه لكي لا يؤثر على إحساساته وهـو يحتمل دينونة الخطية. لكنه الآن، وبعد أن أكمل كل العمل، شرب الخل «لكي يتم الكتاب»!

ومما سبق نستنتج أن قُوى المسيح الذهنية كانت حاضرة تماماً في كل فترة الصـلب، حتـى أمكنه أن يرى ويعلم أن كل شيء قد كمل. لكن الأجمل من ذلك هو خضـوع المسـيح الكامـل للمكتوب. ومع أن المسيح كان يحس فعلاً بالعطش الشديد والرهيب، فإنّ هذا في ذاته لم يكن سبباً كافياً لأن تنطق شفتاه الطاهرتان بصرخة «أنا عطشان». كلا، بل بوصفه العبد المطيع، الذي مع كونه ابناً تعلم الطاعة مما تألم به، قد نطق بهذا النطق، لا ليروى غليله، بل لسبب أهم جـدّاً فـي نظره. لقد عَلِم المسيح أن كل شيء قد كمل، وأنه علـى وشك ترك العالم، وعليه فما كان مهماً إرواء غليله مـا دام موته بات وشيكاً، بل إنه قال ما قالـه «لكـي يـتم الكتاب».

> إن المسـيح لـيس فقـط لم يعمل لأجل نفسه شيئاً، بل أيضاً لم يتكلم لأجل نفسه كلمـة. فحتـى في أدق الخصوصـيات، وألـزم الضروريات، عندما عطش عطشاً شديداً فوق الصليب، لم يقل «أنا عطشان» إلا «لكي يتم الكتاب»!

قال رجل الله داربي: "إن المسيح كـان شخصـاً فريداً، عاش حياة لا نظير لهـا". فلقـد لاحـظ مـن دراسته للأناجيل أن المسيح لم يعمل عملاً واحداً لنفسه قط، بل كانت كـل أعمالـه وكـل معجزاتـه لأجـل الآخرين. ونحن يمكننا أن نضيف أنه ليس فقـط لـم يعمل لأجل نفسه شيئاً، بل أيضاً لم يتكلم لأجل نفسـه كلمـة. فحتـى فـي أدق الخصوصـيات، وألـزم الضروريات، عنـدما عطـش عطشـاً شـديداً فـوق الصليب، لم يقل «أنا عطشان» إلا «لكي يتم الكتاب»!

هذا بالنسبة لذلك الشخص المبارك. تُرَى ما هو الحال بالنسبة لنا؟ ما هو الكتاب المقدس بالنسبة لك أيها القارئ العزيـز؟ الكتـاب الـذي لا يحدثك عن خلاص نفسك فقط، بل عن شخص مخلصك أولاً وأخيراً.

هل لهذا الكتاب العظيم مكان في حياتك وقراءاتك؟ ثم إذا كنت تقرأ فيه، فكيـف تقـرأ؟ أتقرأه بانتظام؟ وبشغف؟ وبفهم؟ ثم إذا كنت تفهمه فهل تعيشه؟ هل تنفذ ما يقوله الله لـك فيه؟ وهل ما يقرره الكتاب المقدس هو الفيصل لك في كل أمر كما كان بالنسبة للمسيح؟

ليت الرب يسوع الذي مضى إلى الصليب ليتمم مشيئة الله، والذي فوق الصليب وفي شدة العطش صرخ قائلاً: «أنا عطشان» لكي يتم الكتاب، يبارك حياتك فيمكنك أنت أيضاً أن تقـول مع المرنم «دربني في سبيل وصاياك لأني به سررتُ. أمِلْ قلبـي إلـى شـهاداتك، لا إلـى المكسب... ثبتْ خطواتي في كلمتك ولا يتسلط على إثم» (مز١٣٣،٣٦،١١٩:٣٥).

صرخة الإنسان المسكين، وعذابه إلى أبد الآبدين

هذه العبارة الصغيرة والعميقة «أنا عطشان» ترينا أن المسيح - تبارك اسمه - قَبِـل أن يأخذ مكاننا فوق الصليب. كان بيلاطس البنطي قد قال، مشيراً إلى المسيح، قبيل الحكم بصلبه مباشرة «هوذا الإنسان»، وها المسيح هنا كأنه يجيب عليه بالقول «أنا عطشان»، فهـذه هـي بحق صرخة البشرية جمعاء. ومن كان بوسعه أن يروي غليل البشرية سوى المسيح ابـن الله الذي افتقر من أجلنا وهو غني لكي نستغني نحن بفقره (٢كو٨: ٩)؟ ذاك الذي قَبِل أن يصـير عطشاناً ليروي عطشنا الأبدي. لقد عبر المسيح عن هذه الحقيقة في أيام جسـده عنـدما قـال للمرأة السامرية في يوحنا٤: ١٠ «لو كنت تعلمين عطية الله، ومن هو الذي يقول لك أعطينـي لأشرب، لطلبت أنت منه فأعطاك ماء حيا». وكأن الرب يقول للسامرية: لو علمت حقيقة هذا الشخص الذي أمامك، وكم افتقر وكم تكاف حتى يبدو أمامك رجلاً متعباً محتاجاً إلى قليل ماء، لو علمت هذا فإنك يقيناً كنت تطلبين الماء منه فوراً، وكان هو يعطيك إياه في الحال.

لقد كانت هذه المرأة تمثل البشرية في بؤسها وبحثها عما يروي الغليل تحت الشـمس. لقـد سعت وراء الملذات والشهوات. قال لها المسيح «كان لك خمسة أزواج والذي لك الآن ليس هـو زوجك». فهل استطاعت هذه الأمور أن تروي تلك النفس البائسة؟ كلا، بل زادتها عطشاً «كـل من يشرب من هذا الماء يعطش أيضاً»، أي يزداد عطشاً. وكما كانت المرأة السامرية أيام المسيح هكذا الملايين اليوم يجرون وراء اللذة الوقتية والمتعة العرضية، لكن ما زالت البئر عميقة فمن أين للإنسان الماء المروي؟ يقولون إن الحاجة أم الاختراع، فإذا كان هذا صحيحاً، فكم عـالم اليـوم

باختراعاته التي لا تنتهي يحكم على نفسه بأنه يزداد احتياجاً يوماً بعد يوم؟ إن هذه الاختراعات تؤكد حاجة الإنسان لكنها لا تسدها، فلو كان بوسع هذه الأمور أن تسعد الإنسان لما تكلف ابن الله هذه الكلفة الرهيبة، ولما افتقر هذا الفقر الشديد كيما يهبنا الماء الحي. قال المرنم قديماً «عطشت نفسي إلى الله، إلى الإله الحي». وهو عين ما عبر عنه أحد القديسين القدماء عندما قال: "لقد خلقتنا يا الله لذاتك، ولن نجد سعادتنا بعيداً عنك". حقاً لا شخص، ولا جهاز، ولا عقيدة يمكن بحق أن يروي ظمأ النفس الأبدي، أو يريح القلب. هناك شخص واحد فقط، ابن الله الذي قال عنه المرنم:

سمعتُ صوتَه يذيعُ القولَ إعلانا
ماءُ الحياةِ إنني أعطيه مجانا

تعالَ يا عطشانُ واشربْ واغنم الحياة
فجئته حالاً وقد شربتُ من مَجْراه

فجئته كما أنا ذا حَزَنٍ مُتعَبْ
فتمَ لي من بهجتي وراحتي المطلبْ

هل تشعر أيها القارئ العزيز بالعطش، ولا تجد في هذا العالم ما يروي عطش نفسك؟ إن ابن الله الكريم قد جاء إلى هذا العالم البائس ليخلص الخطاة. وأنت إن أتيت بالإيمان فسُيشبع جوعك الروحي ويروي ظمأك. فلقد قال بفمه الكريم «من يُقبِل إلي فلا يجوع، ومن يؤمن بي فلا يعطش أبداً» (يو٦: ٣٥).

وخطية الإنسان وبعده عن الله لم ينتج عنهما مجرد العطش في هذه الحياة، بل إن في انتظاره ما هو أمرّ وأنكى، في انتظاره أبدية بلا نهاية سيكون نصيبه فيها العطش الأبدي الرهيب. لقد ذكرنا في ما سبق أن المسيح أتى ليشاركنا في بؤسنا كيما يمكنه أن يرثي لنا في ظروفنا ليقدر أن يعين المجربين. ونضيف الآن أنه أيضاً أتى إلى العالم ليعالج المشكلة ويجتث جذورها. ولهذا فقد ذهب إلى الصليب، بل عطش أيضاً - تبارك اسمه - ليعفينا من

العطش الأبدي. ففي حياته شاركنا الألم، وفي موته اقتلع جذور المشكلة.

* * * *

لقد عبّرت صرخة المسيح السابقة «إلهي إلهي لماذا تركتني؟» عـن آلام نفسـه، لكـن هـذه الصرخة «أنا عطشان» تعبر عن آلام جسده. وذلك لأن الخطية في أجرتها لا تنحصر في الـنفس وحدها، ولا في الجسد وحسب، بل في كليهما. لقد قال المسيح مرة «خافوا بالحري من الذي يقـدر أن يهلك النفس والجسد كليهما في جهنم» (مت١٠: ٢٨). ولهذا فقد احتمل المسيح لأجلنا العذاب في نفسه وجسده.

إن صرخة الرجل الغني في الهاوية، بل طلبته الوحيدة فيها، عندما رأى إبـراهيم مـن بعيـد ولعازر في حضنه، هي «يا أبي إبراهيم، ارحمني، وأرسل لعازر ليبل طرف إصبعه بمـاء ويبـرد لساني، لأني معذب في هذا اللهيب» (لو١٦: ٢٤). ومع تفاهة الطلب وتواضعه جداً، فإنه لـم يُعـطَ لذاك الذي كان يوماً غنياً. لماذا إذاً لا تأتي إلى المسـيح الذي يعطي الماء الحي، والذي قبِلَ أن يعطش وهو فـوق الصليب ليرويك؟!

ولهـذا فقـد ذهـب إلى الصليب، بل عطش أيضاً - تبـارك اسمه - ليعفينـا مـن العطـش الأبـدي. ففـي حياتـه شـاركنا الألم، وفي موته اقتلع جذور المشكلة.

مرة تهكم ملحد كان يعشق الخمر، تهكم بالسـماء وسكانها، فقال أمام أحد المـؤمنين: "أنـا لا أريـد أن أذهب إلى سمائكم التي ليس فيها خمر". أجابه المؤمن : "لكن تذكر أن جهنم ليس فيها ماء"!

نعم لقد أدخلت الخطية العطش إلى الإنسان. لكن المسيح أتى بهذا النداء الحلو في يوحنا ٧ «إن عطـش أحد فليقبل إلي ويشرب». لكنه هنا، وهو فـي مكـان الخطاة على الصليب، ها هـو بنفسـه يصـرخ «أنـا عطشان» كبرهان على أنه أخذ مكان الخطاة وتحمل أجرة الخطية ونتيجتها.

أما بالنسبة للمؤمنين فما أسعد حاضرهم وما أمجد مستقبلهم. الآن جعل الرب سروراً في قلوبنا أعظم من سرورهم، إذ كثرت حنطتهم وخمرهم. أما المستقبل فما أمجد ما سـنتمتع بـه عن قريب عندما يأتي ربنا ثانية ليأخذنا إليه وليكمل عمل الفداء.

أيهـا السـائحُ مـاذا أنـت راجٍ فـي النعـيمْ
إكليـل بـر مجيـدٍ مـن يـدِ الفـادي الكـريمْ
والثيـابَ البـيضَ تكسـو كـلَ مـن نـالَ الفِـدا
حيث نهـرُ الـروضِ صـافٍ يرتـوي منـه الظمـا

الآن هنا أنهار مياه حية تجري من بطن المؤمن بالمسيح، لكن هناك ينتظرنا نهر من ماء حياة لامعاً كبلور. هذا كله ينتظر فقراء هذا العالم وظمأى هذه الأرض، لكـن ذلـك الغِنـى العجيب والتمتع الأبدي ليس بالانفصال عن الأحزان والآلام التي عاناها مَنْ قِيـلَ مـن فـوق الصليب أن يصرخ لأجلنا قائلاً: «أنا عطشان».

عطش المسيح في ذلك اليوم، وإلى اليوم

تُرى ما الذي نقصده بعطش المسيح في ذاك اليوم؟ إلى أي شيء كان المسيح عطشاناً فـي يوم صلبه؟ مع أننا نؤكد أن المسيح كان فعلاً عطشاناً جسدياً للماء الطبيعي، كما ذكرنـا قـبلاً، فإننا أيضاً نعتقد أن لهذه العبارة بُعداً أكبر من مجرد العطش الجسدي. فهي تعني بالإضافة إلـى ذلك شيئين على الأقل:

١- العطش إلى الله

٢- العطش إلى إكمال عمل الفداء

ماذا نقصد بعطش المسيح إلى الله؟ لقد نطق المسيح بعبارة «أنا عطشان» بعـد صـرخته المرة «إلهي، إلهي، لماذا تركتني؟». فتَرك الله له مدة ثلاث ساعات كاملة جعله يحس بـالعطش الشديد. لقد كان لسان حاله ما جاء في المزمور ١٤٣: ٦ «بسطت إليك يـدي. نفسـي نحـوك كأرض يابسة»، وأيضاً ما جاء في المزمور٤٢: ١-٣ «كما يشتاق الإيل إلى جداول المياه هكـذا تشتاق نفسي إليك يا الله. عطشت نفسي إلى الله، إلى الإله الحي، متى أجـيء وأتـراءى قـدام الله... إذ قيل لي كل يوم: أين إلهك؟». لهذا فبعد هذه الصرخة مباشرة قال «قد أُكمل»، ثم «يا أبتاه، في يديك أستودع روحي». نعم لم تكن تلك الصرخة فقط صرخة جسـده المحتـاج إلـى الماء، بل بالحري صرخة نفسه المشتاقة إلى الله!

وماذا نعني بالعطش إلى إكمال الفداء؟ لقد عبّرت صرخة المسيح «أنـا عطشـان» عـن اشتياقه ورغبة قلبه لإتمام عمل الفداء. هذا الاشتياق الذي عبّر عنه مرة لتلاميذه بـالقول «لـي صبغة أصطبغها (مشيراً إلى آلام موت الصليب) وكيف أنحصر حتى تكمل» (لـو١٢: ٥٠)؛ أو كم أنا محصور حتى تكمل تلك الآلام. وها هنا المسيح تبارك اسمه في نهاية مشوار الألم، وقـد رأى أن كل شيء قد كمل، قال «أنا عطشان»، أي أنا عطشان لإتمام النبوة الصـغيرة الباقيـة ولإكمال عمل الفداء. وبعدئذ قال «قد أكمل». ويعلق الرسول بولس على ذلك بالقول «رئـيس الإيمان ومكمله يسوع، الذي من أجل السرور الموضوع أمامه احتمل الصليب مستهيناً بالخزي» (عب١٢: ٢). نعم، فلقد كان السرور الذي أمامه أن يكمل عمل الفداء، كيما يأتي بأبناء كثيـرين إلى المجد.

لكن ذاك الذي كان عطشاناً في ذلك اليوم ما زال إلى اليوم عطشانَ. وهو أيضاً عطشان إلى أمرين رئيسيين.

أولا: إنه **عطشان إلى النفوس الهالكة المائتة**. فذاك الذي عطش ليرحمنا من العطـش الأبدي، وبعمله هذا أدخل إلى قلوب الملايين من المؤمنين تعطشاً حقيقياً إليه، ما زال متعطشـاً إلى النفوس، يريد أن ينظر الكثيرون من المساكين والتعساء إلى صـليبه فيغمـرهم الارتـواء الأبدي. وهو عين ما نقرأه في يوحنا ٤ يوم تقابله مع المرأة السامرية. فلقد قال لها أعطينـي لأشرب. ونحن لا نقرأ في الأصحاح أنها أعطته الماء الحرفي، بـل أعطتـه قلبهـا البـائس وحياتها الضائعة ونفسها المعذبة القلقة فأسعدها، وارتوى لما أرواها.

إلى هذا ما زال المسيح عطشاناً. إنه عطشان لخلاص الخاطئ. فهل نبادر بأن نقدم تلك النفوس الغالية إليه؟! لا عجب أن المسيح يوم لقائه بالسامرية قال لتلاميذه «ارفعـوا أعيـنكم وانظروا الحقول إنها قد ابيضت للحصاد... لكي يفرح الزارع والحاصد معاً» (يو٤: ٣٥،٣٦).

لكنه أيضا عطشان إلى **تكريس المؤمنين**، أولئك الذين من أجلهـم عطـش وهـو علـى الصليب. نعم إنه ما زال عطشانَ إلى محبتهم وعبادتهم وخدمتهم له! أفلا يستحق ذلك المجيد أن نشق لأجله محلة الأعداء ونستقي له الماء (٢صم٢٣: ١٥،١٦)؟ وإن كان أبطال داود فعلوا لك قديماً مع مليكهم، أفلا يستحق سيدنا أكثر؟

ليس ذلك فحسب، بل ويا للعجب، ففي يوم قادم سيسمع فريق من المؤمنين هذه العبارة مـن فم سيدنا «إني جعت فأطعمتموني، عطشت فسقيتموني» وهم إذ يندهشون مـن هـذه العبـارات

ويقولون له باستغراب «يا رب متى رأيناك جائعاً فأطعمناك أو عطشـاناً فسـقيناك؟...» يجيـب عليهم قائلاً «الحق أقول لكم: بما أنكم فعلتموه بأحد إخـوتي هـؤلاء الأصـاغر، فبـي فعلـتم» (مت٢٥: ٣٤-٤٠). ومن هذا نتعلم أنه حيث إخوةٌ للمسيح في حاجـة إلـى مـد يـد المعونـة والإسعاف، لتخفيف آلامهم ولمساعدتهم على تحمل النوائب التي تحل عليهم، فهناك يسوع فـي همساتهم الضعيفة المتهالكة يقول «أنا عطشان».

* * * *

وفي الختام أقول: ذاك الذي تعب لأجلنا، وعطش، ومات وهو عطشـان، ألا يسـتحق أن نأتي إليه بصادق الحب، ونعطيه لا فضلة الحب بل أفضله؟ ألا يستحق أن نعطيـه المحبـة الأولى، كيما يرى من تعب نفسه ويشبع؟! سيتم ذلك حتماً عن قريب على أكمل وجه، عنـدما يأتي لأخذ قديسيه وكنيسته إليه فيجتمع حوله في السماء الملايين التي لا تُحصى من المفـديين، يشربون من نهر الحياة الخارج من عرش الله والخروف. نعم عندئذ سيتحقق القصد النهـائي من الفداء ومن الصليب ومن صرخته الغالية على قلوبنا «أنا عطشان». لكن ليتنـا نحـرص على ذلك من الآن.

العبارة السادسة من فوق الصليب

كلمة الانتصار

بعد هذا رأى يسوع أن كل شيء قد كمل، فلكي يتم الكتاب قال: أنا عطشان. وكان إناء موضوعاً مملوّاً خّلاً، فملأوا إسفنجة من الخل، ووضعوها على زوفا، وقدموها إلى فمه، فلمَّا أخذ يسوع الخل قال:

قد أُكْمِلَ

(يو ١٩: ٢٨-٣٠)

لقد وصلنا الآن، ونحن نتتبع عبارات المسيح السبع التي نطق بها - له المجد - من فـوق الصليب، إلى العبارة السادسة، تلك العبارة القصيرة والعظيمة الواردة في إنجيل يوحنا ١٩ «قـد أُكمِل». وفي الواقع أننا مهما تكلمنا عن هذه العبارة فلن نفيها حقها، ومهما أسهبنا في شـرحها ففي النهاية لن يكون حديثنا عنها قد أُكمل. فهذه العبارة هي باللغة الأصلية للعهد الجديد (اللغـة اليونانية) مكونة من كلمة واحدة تُنطَق "تيتيليستاي". وهي بكل يقين أعظم كلمة مفردة نطق بهـا إنسان، أو سمعتها الآذان. هذه الكلمة الواحدة هي مثل القطرة لكنها تحتوي على المحيط. فإننـا نحتاج إلى كل مفردات اللغة لشرحها، وإزاءها نشعر أننا أمام بحر من الأسرار لا يمكننا عبوره. وكل ما نستطيعه هو أن نقف على شاطئه نتأمل أسراره من بعيد، ونستمع إلى هـدير أمواجـه. ومع أن المفسرين حاولوا، على مدى التسعة عشر قرناً الماضية، شرح تلك الكلمة الواحدة، وكل منهم أدلى بدلائه واستقى، لكن النبع نفسه ظل فائضاً كما كان. ولا عجب، لأن كلمة كهذه «قـد أُكمل»، من شخص كهذا: حمل الله الكريم، وفي مناسبة كهذه: آخر لحظاته من فوق الصليب، لا بد أنها تحتوي على أعماق تفوق إدراك البشر، وتعني أشياء مغروسة في قلب اللاهوت لا يقـدر الذكاء البشري بلوغ مداه. والأبدية وحدها ستكون المجال لفهم الكثير من معنـى هـذه العبـارة السادسة للمسيح من فوق الصليب «قد أُكمل».

ونبدأ حديثنا عن هذه الكلمة بالإشارة إلى:

أولاً: مدلول كلمة «قد أُكمل»

يقول العارفون بعادات ذلك الزمان ولغته إن هذه العبارة "تيتيليستاي" كان يقولهـا الخـادم بعد أن يُكمل العمل الذي كلفه إياه سيده. وكان يقولها التاجر بعد أن يسد الفـواتير والكمبيـالات

التي ينبغي سدادها. وكان يقولها أيضاً الفنان بعد أن يضع لمساته الأخيرة على عمله الفني، كما كان يقولها القائد الظافر في معركته وهو يسير في موكب النصر. هكذا هنا فوق الصليب، قـال عبارة "تيتيليستاي" الخادم الكامل، والتاجر العظيم، والفنان الحقيقي، والمحارب المظفر. الخـادم الذي تمم كل مشيئة الله، والتاجر الذي سد كل ديون مفدييه، والفنان الذي أكمل عمـل الخـلاص العظيم، والمحارب الذي هزم الشيطان وسحق رأس الحية.

«قد أُكمل»: إنه أعظم وأخطر إعلان سمعه إنسان منذ بدء الخليقة. فالـذي أكملـه ربنـا يسوع المسيح كثير، بل كثير جداً. لقد أكمل عمل الفداء، وأنهى خطة المصالحة من وجهة نظر الله، ووضع أساس إنجاز كل مشورات الله الصالحة، وفيه تمت كل النبوات عن آلامه، وهو الذي قام بسداد كل الديون. والأرجح أن المسيح قال كلمته هذه "تيتيليستاي" بصوت عظيم، مثل كلمته السابقة «أنا عطشان»، واللاحقة «يا أبتاه، في يديك أستودع روحي». فهذه الكلمة - كما سنرى - لم تكن أبداً أنة ضعف وخَوَر، بل كانت صيحة غلبة وظَفَر.

لم يقل المسيح هنا: أنا انتهيت، بل أنا أنهيت. بل أكثر من ذلك، أنا أكملت: أكملت عملاً مُتقَناً دون أن أبقي فيه شيئاً ناقصاً على الإطلاق. عندما يموت الإنسان ينتهي، وتهلك أفكـاره ومشروعاته معه (مز٤:١٤٦). لكن المسيح بموته كـان ينجـز أعظـم المشـروعات علـى الإطلاق، كان يضع الأساس الراسخ لكل مشروعات الله وقصد الدهور.

هذه العبارة تمثل النطق السادس للمسيح من فوق الصليب. ونحن نعرف أن الرقم ٦ هو رقم العمل. ففي ستة أيام صنع الرب السماء والأرض والبحر وكل ما فيهـا (خـر١١:٢٠)، وفي ست ساعات أكمل عمل الفداء، وكان ذلك أيضاً في اليوم السادس مـن الأسـبوع، يـوم الجمعة. وها هو من فوق الصليب في نطقه السادس يقول «قد أكمل».

كثيرون، عندما أتت لحظة موتهم، نظروا إلى ماضيهم وتأملوا ما تممـوه فـي حيـاتهم بالمقابلة مع ما كانوا ينوون أن يفعلوه، فامتلأوا بالأسى والأسف، وكأنهم يقولون: "ما أعظم ما كنت أود أن أفعل، وما أقل ما أنجزته بالفعل". أما المسيح فليس هكذا. وحتى لو كان هـؤلاء أنجزوا كل ما كانوا يتمنون، ذاك الذي لأجله أوقفوا حياتهم كلها، وكانوا بذلك قد أضافوا إلـى رقعة المعرفة مساحة جديدة، أو وطئوا بأقدامهم أرضاً جديدة، فما قيمة هذا كله بالمقابلـة مـع

ذلك العمل الذي أتمه ابن الله* من فوق الصليب؟

مرة قال نحميا: «أنا عامل عملاً عظيماً، فلا أقدر أن أنزل» (نح٦:٣)، لكن الذي كان يعمل العمل العظيم بكل معنى الكلمة هو المسيح، ولم ينزل فعلاً، لم ينزل من على الصليب إلا بعد أن أتمه. نعم لقد أكمل المسيح العمل العسير الذي أمامه يعتبر خلق السماوات والأرض شيئاً أيسر بكثير. فخلْق الكل كان بمجرد أمر وكلمة «بكلمة الرب صُنِعَت السماوات، وبنسمة فيه كل جنودها» (مز ٣٣:٦)، أما مصالحة الكل فاستلزمت دم الصليب. نعم، لقد أكمل المسيح العمل الذي لأجله أخذ صورة عبد، والذي لأجله تجسد، ولأجله عاش فوق الأرض أكثر من ثلاث وثلاثين سنة، ولأجله قضى فوق الصليب ست ساعات كاملة. ها هنا – تبارك اسمه – وقد أكمل العمل يصرخ قائلاً «قد أُكمِل†».

ثانياً : أدلة كمال عمل المسيح

يمكننا أن نتتبع عدة أدلة لكمال عمل المخلص من فوق الصليب، وهي أدلة فورية وقوية

---

* لا غرابة في أن هذه الكلمة لم تَرِد إلا في إنجيل يوحنا فقط الذي هو إنجيل ابن الله، فمن سوى الكلمة الأزلي الذي صار جسداً وحل بيننا، يقدر أن ينطق بمثلها؟!

† يوحنا الذي ذكر كلمة «قد أُكمِل» في إنجيله، أشار أيضاً مرتين في سفر الرؤيا إلى عبارة مشابهة (لكنها ليست الكلمة عينها) وهي عبارة «قد تم». المرة الأولى في رؤيا ١٦:١٧، مع هذا الفارق أن عبارة رؤيا ١٦ تتحدث عن الدينونة التي ستقع على العالم الأثيم المذنب، أما في الإنجيل فتشير إلى الدينونة التي احتملها ابن الله. ومع خطورة الدينونة التي ستقع على الأشرار، لكنها لا تُقارن بتلك التي احتملها المسيح على الصليب، عندما كان يتعامل مع الخطية أصلاً وفرعاً.

والمرة الثانية في رؤيا ٢١:٦، وذلك بالارتباط بوصول الله إلى غايته من مشروع الفداء، فلقد تم إبطال كل الأعداء، وكان آخر عدو يُبطَل هو الموت. ولقد مضت السماء الأولى والأرض الأولى، وحل محلهما سماء جديدة وأرض جديدة. ولقد وصلت عروس المسيح إلى عريسها، وشاهد الرائي «مسكن الله مع الناس». بعد هذا كله قال الجالس على العرش: «قد تم». نعم سيُنهى الله حتماً ما قصده في الأزل، لكن في الصليب وضع المسيح الأساس الراسخ لهذا كله.

وأبدية كالآتي:

الأدلة الفورية: وهي أدلة منظورة ومحسوسة. فنحن نعرف أنه عندما كان المسيح معلقا فوق الصليب حدثت ظلمة معجزية فوق الأرض كلها. وما إن صرخ يسوع بصوت عظيم وأسلم الروح حتى انقشع الظلام الذي خيم بغتة على الأرض، وملأ الكون الضياء. وهذا يدل على أن المسيح، الذي كان متروكاً من الله، قد أنهى العمل وأنجز المهمة. لكن ليس فقط عاد الضياء، بل حدث شيء آخر، أعني به الزلزلة التي شقّقت الصخور، وفتحت القبور، بل أيضاً قام كثير من أجساد القديسين الراقدين، معلنة نصرة المسيح على الموت، عدو البشرية الأول. فكأن الله لم يسمح أن يدخل المسيح إلى القبر إلا بعد أن يعلن أولاً نصرة المسيح على الموت وعلى القبر.

الأدلة القوية: وهي ليست أدلة في العالم الطبيعي، كعودة النور وتشقق الصخور وتفتح القبور، ولا هي أدلة في العالم غير المنظور، مثل دليل قيامة كثير من أجساد القديسين، بل إنه دليل في العالم الروحي والديني، إذ انشق حجاب الهيكل إلى اثنين من فوق إلى أسفل. ويا له من دليل قوي! فذاك الحجاب، الذي كان طوال العهد الأول يعلن لكل من يريد الاقتراب إلى الله أنْ "ممنوع الدخول"، قد انشق إلى اثنين مُعلناً ترحيب الله بالخاطئ التائب، فإذ كُمل رئيس خلاصنا بالآلام فقد أمكن أن يأتي الله بأبناء كثيرين إلى محضره.

ذلك الحجاب، الذي كان طوال العهد الأول يعلن لكل من يريد الاقتراب إلى الله أنْ "ممنوع الدخول"، قد انشق إلى اثنين مُعلناً ترحيب الله بالخاطئ التائب، فإذ كُمِّل رئيس خلاصنا بالآلام فقد أمكن أن يأتي الله بأبناء كثيرين إلى محضره.

الأدلة الأبدية: وهي بكل يقين أقوى هذه الأدلة جميعها، وأعني بها قيامة المسيح من الأموات في اليوم الثالث. إن هذه القيامة تعلن أن الله قِبِل المسيح وارتضى بعمله؛ وإلا فكيف قام المسيح من الأموات لو أن المسيح لم يكن قد أوفى كل الدين؟

وليس فقط قام المسيح من الأموات، بل إنه صعد إلى السماء، وتمجد إذ جلس عن يمين الله في الأعالي، ومن هناك أرسل الروح القدس إلى العالم ليسكن في قلوب المؤمنين به.

ثالثاً: مضمون كمال عمل المسيح

دعنا الآن - بشيء من التفصيل - نتأمل في مضمون كمال عمل المسيح من فوق الصليب. أو - بكلمات أخرى - دعنا نتأمل في ما هو الذي أكمله المسيح من فوق الصليب، ولنتتبع ذلك في السباعية التالية:

الأمر الأول: إتمام مشيئة الله

إن أول شيء أكمله المسيح من فوق الصليب هو **مشيئة الله**. فلقد قام - تبارك اسمه - بتنفيذ خطة الله الأزلية ومقاصد نعمته من نحو الإنسان المسكين الخاطئ.

يقول الرسول بولس «لأن مهما كانت مواعيد الله، فهو (أي المسيح) فيه النعم، وفيه الآمين، لمجد الله، بواسطتنا» (٢كو١:٢٠). هذه الآية معناها أنه مهما أراد الله أن يعمله تجاهنا، ومهما كانت مواعيد الله من نحونا، فإن المسيح من جانبه يقول نعم، فالمسيح لا يقول مطلقاً «صَعبتَ السؤال» مهما عظم الطلب أو ارتفع إلى فوق. في الأزل، قبل خلق العالمين، قال المسيح لأبيه "نعم"، «أن أفعل مشيئتك يا إلهي سررتُ». ومن ثم فقد أتى إلى العالم ليفعل مشيئة الله، وليفعلها بسرور. لكن لنلاحظ أنه ليس فقط فيه النعم، لأننا نحن أيضاً قد نقول "نعم" في بعض الأحيان، دون أن نفعل شيئاً. مثل ذلك الابن الذي حدثنا عنه المسيح في متى ٢١: ٣٠، الذي قال له أبوه «اذهب اليوم اعمل في كرمي»، أجابه الابن «ها أنا»، لكن لم يعمل شيئاً. أما المسيح فليس هكذا، بل إنه عندما يتسلم الأمر تكون إجابته "نعم، أنا مستعد للقيام بالمأمورية"، ثم يقوم بالتنفيذ، ولا يهدأ حتى يتمم الأمر، وعندئذ يقول "آمين". إنه هو الذي جاءت عنه النبوة في إشعياء ٥٣: ١٠ «ومسرة الرب بيده تنجح». ولهذا فها المسيح من فوق الصليب يقدم التقرير «قد أُكمِل». وكأنه يقول "إن ما قصدتَه أيها الآب لي في الأزل كي أفعله، والذي أعلنتُ من فوق الجبل المقدس وأنا مع موسى وإيليا أني سأكمله (لو٩: ٣١،٣٠)، كما أكدتُ في بستان جثسيماني كامل استعدادي لإتمامه (يو١٨: ١١)، ها أنا قد فعلته وأكملته".

ما أبعد الفارق بين ربنا يسوع المسيح والإنسان الأول آدم، فبينما فشل الإنسان الأول في تنفيذ مشيئة الله في وصية واحدة سهلة، فإن المسيح، الإنسان الثاني، كان سروره أن يفعل مشيئة الله حتى إلى الموت!

لقد سبق أن كُلفَ المسيح مأمورية الخلق، فخالق الكل، كما يخبرنا تكوين ١. وفي تكوين ٢ يقول الوحي: «أُكمِلَت السماوات والأرض». «ورأى الله كل ما عمله فإذا هو حسن جـداً»، ثم «استراح الله»، بمعنى: سُر وابتهج بما فعله. لكن من تكوين ٣:٢ حتى يوحنـا ٣٠:١٩ لا نقرأ مطلقاً عن عمل كامل. فأعمال كثيرة عملها البشر لا يُقال عنها مطلقاً إنها كاملـة. فكـم من أعمال بدأها البشر ولم يكملوها، أو بدأوها حسناً وأنهوها سيئاً. هناك من بدأ في بناء برج ولم يقدر أن يكمله. لكن المسيح ليس هكذا، فلقد قال «طعامي أن أعمل مشيئة الـذي أرسـلني وأتمم عمله» (يو٣٤:٤).

لقد قِيلَ - له المجد - أن يموت لأجلنا، و«بقربان واحد قد أكمل إلـى الأبـد المُقدسـين» (عب١٤:١٠). ولو كانت مشيئة الله هلاكنا فما كان أسهل ذلك بالنسبة لله. لكن مجـداً لله، لأن مشيئته كانت فداءنا من الهلاك على أساس من العدل، فجاء المسيح وأكمل العمل. وعندما دخـل المسيح إلى العالم كان في تمام العلم بما كان حتماً عليه أن يعمله، ولذلك فقد قال «هنـذا أجـيء لأفعل مشيئتك يا الله» (انظر عب٥:١٠-٩). وها هـو الآن عند خروجه من العالم يعلن، من فوق الصليب، أنه قد أكمل العمل ونفذ مشيئة الله في خلاصنا. لقد ذكـر قبلاً أن طعامه هو أن يعمل مشيئة الذي أرسـله ويـتمم عمله، وها هو قد عمل تلك المشيئة وأتمها، فما أسـعده بهذا! لقد شبع بهذا كل الشبع، وبلغـة الرمـز: «أكـل وشرب وطاب قلبه، ودخـل ليضـطجع فـي طـرف العرمة» (را ٧:٣). فله كل المجد.

بموت الصليب، أعلن المسيحُ لنـا محبـةَ الله، وكـلَّ صـفاته. ولهذا أمكنه من فوق الصليب أن يقول »قد اكُمِلَ«. لقد أكمل الغرض العظيم لمجيئـه، وهــو أن يُظهِــر اسـمَ الآب للناس، ويخبرنا عن الله.

الأمر الثـانـي: إعلان الله وصفاته

فهذه العبارة العظيمة، موضوع دراستنا وتأملنـا الآن، وردت في إنجيل واحد من الأناجيل الأربعة، هو إنجيل يوحنا. وإنجيل يوحنا يتميز عن باقي الأناجيـل في أنه يُركز الحديث على لاهوت المسيح، فيقول عنه - من بدايتـه - إنـه الكلمـة الأزلـي الخالق، والابن الوحيد، وحيد الآب. مكتوب في يوحنا ١٨:١ «الله لم يره أحـد قـط، الابـن الوحيد الذي هو في حضن الآب هو خَبر».

مَنْ مِنْ الأنبياء أمكنه أن يعلن الآب؟ لا أحد أمكنه أن يعلنـه، ولا حتـى أن يـراه. لا موسى، ولا إيليا، ولا أي واحد من قديسي أو أنبياء العهد القديم، بل إن من أعلن الآب لنا هـو ابن الله الوحيد، ابن محبته. لولا المسيح لظل الله بالنسبة لنا يسكن في الضباب (١مـل١٢:٨) بحسب تعبير الملك سليمان، وما كان لأحد من البشر أن يعرف مَن هو الله بالحقيقـة. عنـدما تجاسر موسى وطلب إلى الله أن يريه مجـده قـال لـه الله «الإنسـان لا يرانـي ويعـيش» (خر٢٠:٣٣). أما بالنسبة لنا، فما كان مستحيلاً على موسى نفسه، وعلى كل مـؤمني العهـد القديم، صار ممكناً لنا، كقول الكتاب «الله الذي قال أن يشرق نورٌ مِن ظلمةٍ، هو الذي أشـرق في قلوبنا، لإنارة معرفة مجد الله في وجه يسوع المسيح» (٢كو٦:٤). ولمّا قال فيلبس للمسيح «أرنا الآب وكفانا» أجابه المسيح «أنا معكم زماناً هذه مدته ولم تعرفني يا فيلبس. الذي رآني فقد رأى الآب» (يو٨:١٤، ٩)، وذلك لأنه «هو صورة الله غير المنظور» (كو١٥:١).

لكن لكي تظهر محبة الله في كل قوتها ووضوحها كان الأمر يتطلب - لا حياة المسيح فقط - بل موته لأجلنا أيضاً. مكتوب «الله بين محبته لنا، لأنه ونحن بعد خطاة مات المسيح لأجلنا» (رو٨:٥). ويقول الرسول يوحنا «بهذا أُظهرت محبـة الله فينـا (تجاهنـا): أن الله أرسل ابنه الوحيد إلى العالم لكي نحيا به» (١يو٩:٤).

بهذا العمل، أعني موت الصليب، أعلن المسيحُ لنا محبةَ الله، وكل صفاته. ولهذا أمكنه من فوق الصليب أن يقول «قد أُكمِل». لقد أكمل الغرض العظيم لمجيئه، وهو أن يُظهر اسـمَ الآب للناس، ويخبرنا عن الله.

ولهذا فإنه يمكننا أن نقول إنه بغير المسيح لا يمكن لأحد أن يعـرف الله. قـد يعـرف الإنسان عن الله أشياء، أما أن يعرف الله شخصياً فإنه مستحيل تماماً بغير المسيح، لأن المسيح هو كلمة الله، والكلمة لغةً هي التي تعبر عن الشخص. فالمُعبر عن الله هو المسيح، لهذا قـال المسيح «أنا هو الطريق والحق والحياة، ليس أحد يأتي إلى الآب إلا بي» (يو٦:١٤). بل إنـي أقول أيضاً إنه بدون الصليب لا توجد معرفة حقيقية لله. فكيف يمكن للخاطئ الأثيم أن يلتقـي الله الكلي القداسة؟ إما أن يلتقي الإنسان الخاطئ اللهَ القدوس عند صليب ربنا يسوع المسـيح، فينعم بالغفران والمُصالحة، وإما أن يلتقي الله أمام العرش العظيم الأبيض لكـي يدينـه علـى أساس العدل. وفي الحالتين يكون الالتقاء مع المسيح. فالمسيح هو اليوم المخلـص، ولـيس بأحد غيره الخلاص (أع١٢:٤)، وهو غداً الديان، والآب قـد أعطـى كـل الدينونـة للابـن

(يو٥:٢٢). أنه يُخلِّص كل نفس تأتي إليه اليوم، وسيدين كل نفس تأبى ذلك، غداً.

الأمر الثالث: إكمال النصرة على كل الأعداء

فهمنا أن صرخة المسيح "تيتيليستاي" هي صرخة القائد الذي أحرز الانتصار. فلقد كانت هناك معركة حقيقية في الصليب، هي معركة الدهور العُظمى، المعركة التي كانت موقعتها الأولى في الجنة عندما هزم الشيطان أبانا الأول آدم وقاده إلى عصيان الله، فطُرد الإنسان من الجنة. لكن ها قد أتى الإنسان الثاني، الرب يسوع المسيح، ودخل المعركة إنساناً، ولحساب الإنسان، وهزم الشيطان لحسابنا، فهو المُتَنَبأ عنه في الجنة بأنه نسل المرأة الذي يسحق رأس الحية (تك٣:١٥). ولهذا فقد جاء المسيح باعتباره نسل المرأة، ووُلِدَ من العذراء مريم. وفي الجلجثة استطاع أن يسحق رأس الحية تتميماً للقول «هو يسحق رأسك، وأنت تسحقين عقبه». فها ابن الله تغطيه الجراح، وها هو في طريقه لأن يسكب للموت نفسه، لكنه قَبِلَ الموت طوعاً لكي يبيد بالموت ذاك الذي له سلطان الموت، أي إبليس. وفيه تمت كلمات الرسول أنه «جرد الرياسات والسلاطين (أي قوى الشيطان كلها) أشهرهم جهاراً ظافراً بهم فيه (أي في الصليب)» (كو٢:١٥).

إذاً فنحن أيضاً، مع أحد الشيوخ المذكورين في سفر الرؤيا، نقول «قد غلب الأسد الذي من سبط يهوذا» (رؤ٥:٥). وعندما قال المسيح «قد أُكمِل» كان بهذا يهتف هتاف الانتصار، عكس ما يبدو للعيان في ذلك اليوم. فمع أن الشيطان بدا وكأنه في قمة نصرته عند الصليب، فإن الصليب كان لإبادته تماماً.

والخصمُ قد ظن	بأنه ظَفَرْ
إذ دُفِنَ الرب يسوع	وخُتِمَ الحجرْ
فخابتِ الآمالْ	في ظاهر الأمر
لكن رئيسَ الحياة	قامَ من القبر

صحيح أنه إلى الآن لم تتم إبادة الشيطان، فما زالت حكمة الله ترى الإبقاء عليه، وما زال هناك استخدام له، لكن صحيح أيضاً أن المسيح في الصليب قد وضع أساس إبادته، كما هو

مكتوب «لكي يبيد بالموت ذاك الذي له سلطان الموت؛ أي إبليس» (عب٢:١٤).

الأمر الرابع: إكمال الناموس ومطاليبه

لقد قال المسيح في عظته الشهيرة من فوق الجبل «لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأكمل» (مت٥:١٧). ونحن لا نفهم من هذه الآية أن المسيح أتى ليكمل الناموس بمعنى أن يضيف إليه بعض الإضافات، وكأن الناموس كان ناقصاً، حاشا! فداود النبي، في المزمور ١٩، يقول «ناموس الرب كامل». وحاشا أن يقصد المسيح أن الناموس ناقص، كلا! فالمسيح أتى، لا ليضيف شيئاً إلى الناموس، بل لكي يتمم حكم الناموس ويكمل مطاليبه العادلة. فلقد أعلن الناموس أن المذنب يجب أن يُدان، وأن الله لا يمكن أن يبرر الأثيم، فأتى المسيح ليخلصنا، لكن ليس على أساس نقض الناموس، بل على أساس أن يدفع هو بنفسه عقوبة الخطية حسب ناموس الله. الناموس كان يُوجِب اللعنة على كل من لا يعمل به، فأتى المسيح ليموت فوق الصليب موت اللعنة، ليحمل عن مفدييه اللعنة التي كانوا عدلاً يستحقونها، كقول الرسول «المسيح افتدانا من لعنة الناموس إذ صار لعنة لأجلنا» (غل٣:١٣). الناموس كان يعلن أن الإنسان محتاج إلى ذبيحة لتفديه، فأتى المسيح ليكون هو بنفسه تلك الذبيحة. نعم، بهذا المعنى أتى المسيح ليكمل الناموس. وهو إذ صار الذبيحة، واحتمل اللعنة، ودفع أجرة الخطية، فها هو من فوق الصليب يقول «قد أُكمِل».

تفكر - عزيزي القارئ - في تلك الذبائح التي كانت تُقدم حسب الناموس. ما أغزر أنهار الدماء التي سالت من الذبائح قديماً، بدءاً من الذبيحة التي قدمها الله في الجنة، مروراً بكل الذبائح التي قُدمت قبل الناموس، ثم تضاعفت مئات المرات في عهد الناموس «لأن بالناموس معرفة الخطية» (رو٣:٢٠). نعم، تفكر في الرموز المتنوعة: بدءاً من البقرة الحمراء، وثور الخطية، منتهياً بالحمام واليمام، وبالعصفور المذبوح (لا ١٤)، بل أيضاً بقربان الدقيق وسكيب الخمر. ثيرانٌ ذُبِحَت، وكباشٌ نُحِرَت. أَمَا كان مِن نهاية لهذا كلـه؟! مُحال، فإن ذبائح الناموس ما كانت تمنح مُقدمها سوى راحة موقتة* للضمير. يقول الوحي المقدس

---

* نلاحظ أن خيمة الاجتماع لم يكن فيها كرسي ليجلس عليه الكهنة، ذلك لأن العمل لم يكن قد اكتمل، كقول الوحي «كل كاهن **يقوم** كل يوم يخدم ويقدم مراراً كثيرة تلك الذبائح عينها التي لا تستطيع البتة أن تنزع الخطية. وأما هذا (المسيح) فبعد ما قدم عن الخطايا ذبيحة واحدة، **جلس** إلى الأبد عن يمين الله» (عب١٠: ١١،١٢).

«لأنه لا يمكن أن دم ثيران وتيوس يرفع خطايا» (عب١٠:٤)، إلى أن جاء المسيح رئيس كهنة الخيرات العتيدة، ذاك الذي أُظهر مرة عند انقضاء الدهور ليبطل الخطية بذبيحة نفسه (عب٩:٢٦،١١).

إن مجيء المسيح، وموته فوق الصليب باعتباره الذبيحة الواحدة الكاملة الحقيقية أنهيا ذلك النظام القديم تماماً. واسمع ما يقوله الكتاب المقدس عن ذلك «عند دخوله إلى العالم (أي المسيح) يقول ذبيحة وقرباناً لم تُرد، ولكن هيأتَ لي جسداً. بمحرقات وذبائح للخطية لم تُسرّ. ثم قلتُ هنذا أجيء، في درج الكتاب مكتوب عني، لأفعل مشيئتك يا الله» (عب١٠:٥-٧). ويُعلق الرسول على ذلك قائلاً «ينزع الأول لكي يُثبت الثاني».

فلقد نزع الله العهد الأول، والنظام الأول بذبائحه الدموية التي لم تكن تكفر عن الخطية قط، لكي يثبت الثاني: أي يثبت العهد الجديد. نعم، إن ذبيحة المسيح على الصليب أنهت النظام القديم بذبائحه التي كانت موضوعة فقط لوقت الإصلاح، وعهد الرموز اضمحل إلى الأبد. ولهذا كانت صرخة المسيح الرائعة من فوق الصليب «قد أُكمِل».

ضعوا سيوفكم النارية في الغمد يا كروبيم السماء، وليصمت قصيف رعودك المرعبة أيها الناموس العادل، فلقد وفى ديني كله الحمل، ومن فوق الصليب قال بديلنا المبارك «قد أُكمِل».

ما أعظم صرخة المسيح هذه! إنها تعني أنه قد وَفَى الدَين كله، وحمل اللعنة كاملة، وشرب كأس الدينونة حتى آخرها دون أن يُبقِي لنا قطرة واحدة منها. والويل لنا ألف مرة لو لم يقل المسيح «قد أُكمِل»، أو لو كان المسيح أبقى لنا ولو مثقال ذرة مِن الدَين لنوفيه نحن، أو لو حمل كل خطايانا وترك واحدة فقط لنتولى نحن التكفير عنها بأنفسنا؛ إذاً لتعين علينا أبدية لا تنتهي في جهنم بلا أدنى أمل في الخروج، ولَمّا كان يمكننا أن نقول في يوم من الأيام هذه العبارة «قد أُكمل». أما الآن وقد قال المسيح بديلنا المبارك «قد أُكمِل» فهذا معناه أنه قد قضى عنا إلى الأبد، وأنه وفى الدين كله، ولم يُبق علينا فلساً واحداً لنوفيه نحن.

ضعوا سيوفكم النارية في الغمد يا كروبيم السماء، وليصمت قصيف رعودك المرعبة أيها الناموس العادل، فلقد وفى ديني كله الحمل، ومن فوق الصليب قال بديلنا المبارك «قد

أُكمِل».

الأمر الخامس: أكمل النبـوات

فكما أكمل المسيح الناموس بكل رموزه وطقوسه، هكذا أيضاً أكمل النبوات. فهناك مئـات النبوات في أسفار العهد القديم تجمعت كلها لتجد تتميمها بكل دقة في شخص واحد فقـط. فمـن يكون هذا الشخص سوى مسيح الله ورجل مشوراته.

لو حاول أحد أن يُخرج المسيح من الكتاب المقدس، لمَا يبقى فيه بعد ذلك إلا طقوس عقيمة لا معنى لها. وأما النبوات العديدة التي تُحدثنا عن أمل البشرية ومُشتهى كل الأمم فكانت إذ ذاك ستشير إلى لا شيء، أو بالحري إلى شخص ليس له وجود. أما الآن فهي تشير إليـه وتتحـدث عنه. فلقد أتى المسيح إلى العالم، ومضى إلى الصليب، فأصـبحت كـل الرمـوز والطقـوس والنبوات لها معناها المفهوم والواضح. يقول الكتاب المقدس «شهادة يسوع هـي روح النبـوة» (رؤ١٩: ١٠)، بمعنى أن شهادة المسيح بالنسبة للنبوة هي روحها. لولاها لأصبحت النبوة جسـداً بلا روح. ولهذا فإن من يقرأ أسفار التوراة دون أن يكون نصب عينيه أنها كلها تتحـدث عـن المسيح فإنه لن يفهم منها شيئاً على الإطلاق، وتصبح مجرد روايات وقصص، حتى لـو كانـت أحسن القصص.

حقاً ما أكثر النبوات التي قيلت عن المسيح، بدءاً مـن تلـك التـي قيلـت فـي الجنـة (تك٣: ١٥)، مروراً بالتي قيلت قبل الناموس (تك٢٢: ١٨؛ غل٣: ١٦)، ثم تلك التي قيلت فـي الأرض أو في السبي، بجوار نهر الأردن أو نهر خابور. إن موسى وإيليا وهما فوق الجبـل المقدس مع المسيح كأنهما يقولان: "أخيراً فهمنا ليس فقط معنى الرموز الكثيرة في النـاموس، بل أيضاً إلى مَن كانت تشير أقوال النبوات العديدة، عرفنا عمن تكلم الأنبياء: فحقاً لـيس عـن أنفسهم هم جميعاً تكلموا، بل عن واحد آخر" (أع٨: ٣٤).

ثم لاحظ توقيت النطق بتلك العبارة «قد أُكمِل» كما أوضحه لنا البشير يوحنا، إذ يقـول: «بعد هذا رأى يسوع أن كل شيء قد كمل، فلكي يتم الكتاب قال: أنـا عطشـان». لقـد مـر المسيح بذهنه على مئات النبوات ليرى هل بقي شيء منها غير متمم؟ فـرأى نبـوة واحـدة صغيرة ينبغي أن تتم قبل أن يُسلِمَ الروح، فلا يمكن أن تسقط كلمة واحدة، حتى لو بـدت فـي نظر الناس غير مهمة. ولما شرب الخل قال «قد أُكمِل». فالرب – له المجـد – لـم ينطـق بكلمة «قد أُكمِل» إلا بعد أن تمم كل النبوات عن آلامه. وهكذا لم تسقط كلمة واحدة من جميع

ما تكلم به الأنبياء بالروح القدس، بل تمت النبوات جميعها بكل دقة (أع٣:١٨؛ ٤:٢٨؛ ١٣:٢٧،٢٩).

ويعوزنا الوقت لنمر على نبوات العهد القديم التي تمت في المسيح؛ مثل ولادته من عذراء (إش٧:١٤؛ مت١:١٨)، وولادته في بيت لحم (مي٥:٢؛ مت٢:٦)، ثم الهرب به إلى مصر (هو١١:١؛ مت٢:١٣-١٥)، ويوحنا المعمدان مُهيئ الطريق قدامه (إش٤٠:٣؛ مر١:٢،٣)، وآيات وعجائب نعمته (إش٣٥:٥،٦)، وعيشته كفقير ومسكين (مز٤٠:١٧)، وأسلوب كلامه بأمثال (مز٧٨:٢؛ مت١٣:٣٤،٣٥)، واحتقار الناس له (إش٥٣:٣؛ يو٦:٤٢؛ ٧:٢٠؛ ٨:٤٨)، ورفْضه مِنْ قِبَل أمّته واخوته (مز٦٩:٨؛ يو١:١١)، وخيانة أحد تلاميذه له (مز٤١:٩؛ يو١٣:١٨)، وأنه سيُساق كشاة إلى الذبح (إش٥٣:٧؛ أع٨:٣٢-٣٥)، حتى نصل إلى آخر نبوة تممها قبل أن يقول «قد أُكمِل»، عندما في عطشه سقوه خلاً (مز٦٩:٢١). هذه والكثير جداً غيرها نبوات تمت عنه وفيه.

بوسعنا الآن إذاً، أن نقول كما قال الرسول بطرس «إننا لم نتبع خرافات مُصنعة». مِن ثَم قال «وعندنا الكلمة النبوية وهي أثبت (أو وقد تثبتت)» (٢بط١:١٦،١٩)، فتتميم النبوات جعل موضوع الإيمان أكثر ثباتاً.

الأمر السادس: أكمل المسيح مسيرة الاتضاع

ما أعظم هذا المفهوم لذلك النطق العظيم «قد أُكمِل». فلقد قاله المسيح بعد أن قال أنا عطشان، فسقوه الخل. وبهذا الأمر أكمل المسيح رحلة التعب والاتضاع في عالم الخطية والضياع، الرحلة التي امتدت إلى أكثر من ثلاث وثلاثين سنة، فيها ذاق من الهوان والفقر ما لم يذُقه سواه. فلقد وصل فقره - تبارك اسمه - إلى أبعد حد: إلى حد العطش، وعدم إمكانه شرب الماء. والواقع كم كان مسار المسيح في هذا العالم أنموذجاً عجيباً وفريداً في الاتضاع والفقر. لقد قال مرة «للثعالب أوجرة، ولطيور السماء أوكار، وأما ابن الإنسان فليس له أين يسند رأسه» (مت٨:٢٠)، لكنه أخيراً بعد أن شرب الخل قال: قد أكمل، ونكس رأسه: أسنده على الصليب!

أرأيت - عزيزي القارئ - طريقاً للاتضاع والفقر مثل هذا؟ إنه طريق عجيب من المجد إلى المهد. لكن أي مهدٍ؟ لقد كان مهده مذوداً للبهائم! فذاك الذي سماء السماوات لا

تسع مجده، لم يكن له موضع في المنزل. نعم، يا لطول الطريق، ويا لبعد المسافة مـن ذُرى المجد إلى نظير هذا المهد! ثم يا لهول الطريق ومشقته من المهد إلى الصـليب واللحـد، في أرض لا تُنبِت سوى الشوك والحسك. اسمع ما يقوله الوحي عن ذلك الطريق العجيب «الـذي إذ كان في صورة الله، لم يحسب خلسة أن يكون معادلاً لله. لكنه أخلى نفسه، آخـذاً صـورة عبد، صائراً في شبه الناس. وإذ وُجِد في الهيئة كإنسان، وَضَع نفسه وأطاع حتـى المـوت، موت الصليب» ، أي وصل إلى أدنى أنواع الموت وأسوإها، موت العار والاحتقـار، المـوت تحت لعنة الناموس. لكن ماذا بعد مـوت الصـليب؟

> لقد انتهت بالصليب مسيرة تواضع المسيح وخزيه. لن يراه العالم في ما بعد كما رآه سابقاً مُحتَقَراً ومخذولاً من الناس، بل إن الناس الأشرار لن يروه حتى يأتي في قوة ومجد كثير.

هل مِنْ اتضاع أبعد من موت الصليب؟ كـلا. وهـا المسيح هنا قَبْل أن يسند رأسه ويسلم الروح يقول «قد أُكمِل» . لقد أكمل مسيرة الاتضاع والفقر، ليبدأ مـن تلك اللحظة مسيرة أخرى مختلفة في كل شيء، هـي مسيرة الرفعة، فيقول الكتاب المقدس «لذلك رفعـه الله أيضاً، وأعطاه اسماً فوق كل اسم، لكي تجثـو باسـم يسوع كل ركبة ممن في السماء ومَـن علـى الأرض ومَن تحت الأرض، ويعترف كـل لسـان أن يسـوع المسيح هو رب» (في ٢:٦-١١).

نعم، لقد أُكمِلت بالنسبة للمسيح مسيرة الاتضـاع والفقر بعد أن عطش وشرب الخل. وهو لن يعطـش في ما بعد، ولن يجوع. قبل أن يبدأ المسيح رحلته الأخيرة إلى المحاكمات والصـليب، ذكـر الروح القدس أن يسوع وهو عالم أن ساعته قد جاءت لينتقـل مـن هـذا العـالم إلـى الآب (يو١٣:١)، وكم كان سرور المسيح عظيماً أن يترك العالم ويذهب إلـى الآب (يـو١٦:٢٨). ألم يَقُل لتلاميذه في حديث الوداع الأخير «لو كنتم تحبونني لكنتم تفرحون لأني قلـت أمضـي إلى الآب، لأن أبي أعظم مني» (يو١٤:٢٨). وها هو هنا يعلن «قد أُكمِل»، وبعدها مباشـرة قال: «يا أبتاه، في يديك أستودع روحي» (لو٢٣:٤٦).

هذا التغيير الكلي والانتقال المفاجئ في المسيرتين نجده مـذكوراً بوضـوح فـي آخـر المزمور١٠٩، مقارنةً ببداية المزمور١١٠. ففـي آخـر المزمـور١٠٩، نجـده كالإنسـان

المسكين، أما في بداية المزمور ١١٠، فنراه الرب المُمَجد حيث نقرأ القول «قال الرب لربي: اجلس عن يميني حتى أضع أعداءك موطئاً لقدميك». نعم، لقد انتهت بالصليب مسيرة تواضع المسيح وخزيه. لن يراه العالم في ما بعد كما رآه سابقاً مُحتَقَراً ومخذولاً من الناس، ولن يكون وجهه كذا مفسداً أكثر من الرجل وصورته أكثر من بني آدم، بل إن الناس الأشرار لن يروه حتى يأتي في قوة ومجد كثير. فالمسيح بعد القيامة لم يَرَه أحد من الأعداء أو الأشرار قط، مع أنه أظهر نفسه مرات لقديسيه. ولن يراه الأعداء حتى يأتي في نار لهيب معطياً نقمة للذين لا يعرفون الله والذين لا يطيعون إنجيل ربنا يسوع المسيح. عندئذ سيهرب الأشرار من حضرته قائلين للجبال والصخور: اسقطي علينا واخفينا عن وجه الجالس على العرش وعن غضب الخروف. وبعد ذلك من وجهه أيضاً ستهرب الأرض والسماء ولن يوجد لهما موضع (رؤ٦:١٦؛ ٢٠:١١).

يقول الرسول «من أجل السرور الموضوع أمامه، احتمل الصليب مستهيناً بالخزي» (عب١٢:٢). وهذا السرور الموضوع أمامه هو أن ينتقل من هذا العالم إلى الآب. وإن كان بولس في آخر حياته قدّم نفسه كالسكيب، وبفرح قال «أكملت السعي» (٢تي٤:٦،٧)، فكم بالحري المسيح هنا يسكب نفسه للموت، وعلى لسانه تلك العبارة الغالية «قد أُكمِل»؟

الأمر السابع: إكمال رحلة الألم

لكن المسيح لم يُنهِ فقط مسيرة الاتضاع والفقر، بل أنهى أيضاً طريق الألم. فليس أنه فقط كان يقصد بعبارته هذه إكمال العمل، بل إنه أكمل أيضاً رحلة الألم.

من البداية، كان - له المجد - يقول: «لي صبغة أصطبغها (مشيراً إلى آلام الصليب التي ستتخلل كل نفسه)، وكيف انحصر حتى تكمل(أو وكم أنا محصور حتى تكمل)» (لو١٢:٥٠). وما كان أقسى الآلام التي تعين على ابن الله أن يحتملها لأجل خلاصنا. إنها الآلام التي كنا نستحقها نحن عدلاً أجرة لآثامنا وخطايانا، حملها هو بالنعمة نيابةً عنا، لأنه لاق بذاك (أي الله) الذي من أجله الكل وبه الكل، أن يكمل رئيسَ خلاصنا بالآلام، كي ما يأتي بنا الله أبناء كثيرين إلى المجد (عب٢:١٠).

والمسيح لم يتألم نوعاً واحداً من الآلام، بل تألم ظلماً وغدراً على أيدي البشر، وتألم حقداً وعدواناً على يد الشيطان، كما تألم عدلاً وبراً على يد الله. لكنه إذ احتمل كل هذه الآلام، صار لجميع الذين يطيعونه سبب خلاص أبدي (عب٥:٩). ولهذا جاءت صرخة المسيح «قد أُكمِل»

مُعلنةً أنه احتمل الألم كله. لقد أكمل طريق الألم، وشرب كأس الغضب حتى آخرها، من ثم قـال «قد أُكمِل».

ولقد كانت هذه الصرخة فعلاً نهاية لرحلة الألم والمعاناة؛ فلم يُترَك جسـده بعـدها نهبـاً للجوارح لتنقض عليه، ولا نهباً للعيون الفاسقة لتتفرس فيه. ولم تُكسر ساقاه كما حـدث مـع المصلوبَين الآخرَين المصلوبَين معه، ولم يُدفَن مع الأشرار كما خططوا له وكما كان مُتوقعـاً. نعم إنها صرخة أنهت كل المعاناة والألم بالنسبة لسيدنا لتبدأ مسيرة الإكرام والتقدير. فتم فيـه وعد الرب للتقي «يحفظ جميع عظامه، واحد منها لا ينكسر» (مز٣٤:٢٠)، كما تمت فيه النبوة أنه سيُدفن «مع غني عند موته» وذلك لأنه «لم يعمل ظُلمـاً ولـم يكـن فـي فمـه غـش» (إش٥٣:٩)، كما تمت فيه أيضاً النبوة «لن تترك نفسي في الهاوية. لن تدع تقيك يرى فساداً. تعرفني سبيل الحياة. أمامك شبع سرور. في يمينك نِعَمٌ إلى الأبد» (مز١٦:١٠،١١). وليس هذا بغريب، لأنه إن كان الله قد تمجد فيه (بموته الكفاري على الصليب) فكان حتماً أن يمجـده الله في ذاته ، ويمجده سريعاً (يو١٣:٣٢).

لقد سُحِقَ سيدنا في الصليب، وطمَت عليه كل تيارات ولجج الله وميازيب عدله، والتهمته نيران غضب الله، وضُرِب بسيف العدل الرهيب، والعدل اكتفى، فماذا بقي؟ لا شيء، وها هو يقول «قد أُكمِل».

مـا أروعَ العمـلَ الـذي أكملتَـهُ	وبموتِـكَ فـوقَ الصـليبِ ختمتَـهُ
كل النبواتِ وموسـى ومـا كتـبْ	فـي سـفرِهِ داود قـد أتممتَـهُ
كُملـتَ بـالألمِ فأُفسِـدَ وجهَـكَ	وعلى الجبين الغُـر خَـطَ خطوطَـهُ
والآنَ فيـكَ تمجـدَ بـل واكتمَـلْ	بصـليبِكَ يـا سـيدي تمجيـده

لك المجد يا ربنا! فآلام جهنم مُركزة تحملتها بالنيابة عنا. وأبشِر يـا أخـي المـؤمن، فطالما أن المسيح أكمل من فوق الصليب العمل لأجلنا محتملاً الآلام الرهيبة فهو حتماً سـيكمل العمل فينا. وإن كان هو قد أكمل الأصعب فهو حتماً سيكمل الباقي وهو أسهل. والذي ذهـب لأجلنا ذهاباً بالبكاء، حاملاً مِبذَر الزرع، لا بد أن يجيء مجيئاً بالترنم حاملاً حزمـه. ثـم إن كان المسيح تألم لأجلنا ونحن خطاة، فبالأولى كثيراً وقد صرنا أحبـاءه نخلـص الآن بحياتـه، ونخلص أيضاً به من الغضب الآتي عندما يأتي هو لأجلنا من السماء ليأخذنا إليه، وهكذا نكون

كل حين مع الرب.

رابعاً: نتائج كمال عمل المسيح

وهي نتائج مزدوجة: بالنسبة للخطاة ، وبالنسبة للمؤمنين.

أولاً: بالنسبة للخطاة

أيها الصديق العزيز، لقد عمل المسيح عمل الفداء من فوق الصليب وأكمله، وليس ذلك فقط بل لقد أعلن ذلك بنفسه أيضاً، فوضع ختم المصادقة والكمال على ما عمله تبارك اسمه. ولقد اكتفى الله حقاً بهذا العمل. ترى أتكتفي أنت به؟ أم تريد أن تضيف عليه شيئاً من عندك؟ ليت روح الله يوضح لكل واحد من القراء الأعزاء أن عمل المسيح العظيم والرائع لا ينبغي أن نضيف عليه أي شيء. لقد اكتفى الله. ولحظة تؤمن بالمسيح وبعمله الكامل لأجلك على الصليب تنتقل من الموت إلى الحياة، وتنعم بكل بركات الفداء.

الشيء الجميل أن المسيح لم يكمل هذا العمل فقط، بل أعلن ذلك بنفسه أيضاً. فأُبْشِرِ يا أخي: لقد اكتفى الله حقاً بهذا العمل. ويا لها من راحة عظمى لقلب المؤمن.

لقد مضى المسيح إلى الصليب ليجهز لنا بموته وليمة النعمة الغنية. وها بشارة الإنجيل تقول «**تعالوا لأن كل شيء قد أُعد**». فلماذا لا تأتي؟ ولماذا تبقى بعيداً؟

والشيء الجميل أن المسيح لم يكمل هذا العمل فقط، بل أعلن ذلك بنفسه أيضاً. فأُبشِر يا أخي: لقد اكتفى الله حقاً بهذا العمل. ويا لها من راحة عظمى لقلب المؤمن، فعمل الإنسان مهما كان هو أبعد ما يكون عن الكمال، أما عمل المسيح الذي عمله من فوق الصليب فهو حقاً عمل كامل.

يا من تعذبون أجسادكم للتكفير عن نفوسكم، كفوا عن محاولاتكم هذه، فكل شيء قد أُعِد. يا من تظنون أن صلواتكم وعهودكم، وذهابكم إلى أماكن العبادة يمكن أن تضيف إلى عمل المسيح أي قيمة، أنتم مخطئون بشدة، فالمسيح قال «قد أُكمل». يا من تسأل «ماذا ينبغي أن أفعل لكي أخلص؟» تعالَ كما أنت، فالمسيح قد أكمل العمل. يا من تشعر باليأس من أن

ترضي الله أو أن تهرب من الخطية وعقابها الأبدي، تعالَ سريعاً ولا تؤجل فمن فوق الصليب قال المسيح كلمته العظيمة والرائعة «قد أُكمل».

ثانياً بالنسبة للمؤمنين

أما بالنسبة للمؤمنين، فكلمتي إليكم مزدوجة: ابدأها بمسئوليتكم وأختمها بامتيازاتكم. ما أكبر المسئولية التي علينا في أن نعلن أخبار هذا العمل العظيم. لقد أعطانا الله خدمة المصالحة، أن نقول للناس: تصالحوا مع الله لأنه جعل الذي لم يعرف خطية، خطية لأجلنا، لنصير نحن بر الله فيه. فهل نعي المسئولية الجسيمة الملقاة على أعناقنا؟ لقد قام بها الرسل والمؤمنون الأوائل كما نقرأ في سفر الأعمال، فهل نحن أيضاً نفعل ذلك؟

لكن أيها المؤمن العزيز أقول لتعزيتك إن الله الذي عمل لأجلك عملاً كاملاً، سوف يعمل فيك عملاً كاملاً أيضاً. وكما بدأ فيك عملاً صالحاً، لا بد أنه سوف يكمل. لقد عمل الجزء الأصعب، أ فلا يتمم العمل؟ إن الرجل لا يهدأ حتى يتمم الأمر اليوم!

العبارة السابعة من فوق الصليب

كلمات التسليم

ونادى يسوع بصوتٍ عظيمٍ وقال:

يَا أَبَتَاهُ، فِي يَدَيْكَ أَسْتَوْدِعُ رُوحِي

(لو٢٣:٤٦)

هذه هي آخر العبارات السبع التي نطق بها الرب يسوع من فوق الصليب، وآخِر نُطقٍ له قبل أن يسلم الروح. ونحن نعرف كم تكون الكلمات الأخيرة للشخص عند الاحتضار ذات قيمة خاصة ومدلول هام.

وقبل التحدث عما نتعلمه من هذه العبارة، نذكر القارئ بأن عبارات المسيح الأربع الأخيرة من فوق الصليب قيلت كلها في آخر ساعات الصلب الست، وقبيل موت المسيح مباشرة، كما أنه يجمعها معاً ارتباط عجيب في ثنائيتين. فصرخة الهجر (العبارة الرابعة) جاءت لأن الله ترك المسيح بسبب صيرورته في ساعات الظلمة ذبيحة خطية، فجاءت العبارة الخامسة تُعبر عن أشواق المسيح إلى الله. ثم عبّرت صرخة الانتصار (العبارة السادسة) عن إكمال المسيح للعمل الذى سلّمه إياه الله، فجاءت الصرخة التالية والأخيرة وفيها يُسلم هو روحه في يدي الآب!

«**يا أبتاه، في يديك أستودع** روحي». أول ما يلفت نظرنا في هذه العبارة أن المسيح وجهها لأبيه. والمسيح من فوق الصليب وجه عباراته التي نطق بها إلى أشخاص عديدين؛ فعبارة منها وجهها إلى أمه ليُرتب أمورها الزمنية وأين تكون بعد موته، وعبارة أخرى وجهها إلى لص تائب ليُرتب أموره الأبدية، وأين سيكون بعد موته هو. وعبارة ثالثة وجهها إلى الله الديان من أعماق الحزن والألم قائلاً «إلهي، إلهي لماذا تركتني؟» كما أنه وجه صرخة لِكل مَن له أذن للسمع قائلاً: «أنا عطشان». ثم وجه عبارة أخرى إلى كل مَن يهمهم الأمر بأنه من فوق الصليب قد أكمل العمل. لكن عبارتيه الأولى والأخيرة من بين عباراته السبع من فوق الصليب كانتا صلاتين لأبيه، بدأ كلتيهما بالقول «يا أبتاه».

ولأن هذه العبارة - كما أسلفنا - هي آخِر عبارة للمسيح قبل موته، فإن هذا يقودنا إلى التأمل في موت المسيح، ونتأمله من زاويتين:

أولاً: هو موت ما أصعبه!

ثانياً: هو موت ما أروعه!

أولاً: ما أصعب موت المسيح!

لقد كانت حياة المسيح سلسلة متصلة من الآلام والأحزان، فقيل عنه بحق «رجل أوجـاع ومختبر الحزن» (إش ٣:٥٣). لكن الأوجاع الثقيلة والحزن المذيب كانت هناك فوق الصليب. مَن فينا يقدر أن يعرف ما تحمله بديلنا الكريم عندما كان مُعلّقاً لأجلنا في الجلجثة؟ في الثلاث ساعات الأولى، تألم على يد الشيطان وعلى يد الإنسان، أما في الثلاث الساعات الأخيـرة فقـد تألم – بوصفه حامل الخطايا - على يد الله الديان. في أثنائها ضُـرب الراعـي رفيـق رب الجنود من الرب نفسه، وتحمل الضربة كاملة، وشرب كأس الغضب حتى نهايتها، وقال «قـد أُكمِل».

والآن دعنا نقترب من مشهد الموت نفسه. والموت بالنسبة للإنسان - بصفة عامة - هو أرهب المناظر جميعها وأفظعها. إنه كما نعلم عدو البشرية الأول. فكيف كان هـذا المشـهد بالنسبة للمسيح يا تُرى؟

ارفعي عينيك يا نفسـي وشـاهدي ربـك فـوق الصـليب. تـأملي فـراش المـوت الذي أُعِد له. أكان فراشاً قشيباً؟ آه، ما أرهب ذلـك المنظـر! أيـن أحبـاؤه، ومريـدوه، وتلاميذه؟ مَن كان منهم هناك ليجفف عرقه، وليوقف نزف دمه؟ مَن كـان هنـاك ليشـجعه ويواسيه، وليتصرف معه تصرفاً واحداً رقيقاً ينعش قلبه ويشجع روحه؟ مَن كان هناك ليقـدم له الماء قبيل موته لما قال «أنا عطشان»؟

آه يا سيدي، مَن ودع الحياة وحيداً تغطيه الظلال القاتمة كتلك الظلال التي أحاطت بمشهد موتك؟

لكن أرجو - عزيزي القارئ - ألا تخطئ الظن. فلم يكن هذا هزيمة للمسيح كأنه أُجبِـر على ذلك جبراً. كلا، بل كان عمل تضحية رائعة، نابعة من قلب أحب بلا حـدود. فهـو -

تبارك اسمه - ما كان ليخضع للموت نظيرنا، لكنه أذعن له بمطلق إرادته، وبموته كسر شوكة الموت. نعم، لقد كان موته موتاً نيابياً وكفارياً، أي أنه كان يموت بالنيابة عن كل واحد من المؤمنين به، أولئك الذين بسرور وشكر وضعوا كل ثقتهم فيه.

وهنا أنا أنتقل إلى جانب مختلف تماماً من الصورة السابقة لأتأمل، لا في ما تراه العين البشرية، بل ما تراه عين الإيمان، فأقول

ثانياً: ما أروع موت المسيح!

نعم ما أروع الطريقة التي انتهت بها حياة المسيح*! ومرة أخرى أقارن هنا بين حياة المسيح وموته. فحياته ما أروعها. لقد عاش كل حياته متكلاً على إلهه. يقول له بحسب المزمور ٢٢ «لأنك أنت جذبتني من البطن. جعلتني مطمئناً على ثديي أمي. عليك أُلقيتُ من الرحم. من بطن أمي أنت إلهي». فذاك الذي هو الله من الأزل، صار إنساناً، وأخذ مركز الإنسان الكامل المُتكِل على الله. ولقد عاش حياة لا نظير لها. وها هو يموت كالإنسان. فكيف يموت؟

إنه يموت وعلى شفتيه صلاة للآب! إنه يقول له: «يا أبتاه، في يديك أستودع روحي»، ثم يموت. فما أروع هذا!

لقد كانت أُولى كلماته المسجلة له في الوحي المقدس هي قوله للمطوبة أمه بحسب ما ورد في لوقا ٢ «ألم تعلما أنه ينبغي أن أكون في ما لأبي†؟» فهو هنا قال عن الله إنه أبوه، تماماً كما قال الله عنه «أنت ابني الحبيب». أما الأشرار فقد اعتبروه مُجَدِفاً لأنه قال إن الله أبوه، فصلبوه. لكن ها هو، في آخِر نُطق له من فوق الصليب، وقبل أن يسلم الروح، يقول

* إنجيل لوقا، الذي يحدّثنا عن المسيح ابن الإنسان، سجل لنا تفصيلات مولده وموته: خروجه من رحم المطوبة العذراء مريم إلى الحياة، ثم خروجه من الحياة بالموت إلى القبر!

† إنجيل لوقا، الذي - كما أشرنا - يحدّثنا عن المسيح باعتباره الإنسان، ذكر لنا أولى كلمات الرب يسوع المسجلة في الوحي وآخر كلماته. كلماته الأولى كانت عن أبيه، والأخيرة إلى أبيه، فهو في حياته كان في ما لأبيه، وعند موته كان في يدي أبيه.

بصوت عظيم «يا أبتاه، في يديك أستودع روحي».

لقد كان سيدنا دائماً هو بحق الإنسان الكامل المتكل على الله، فلما أتت ساعة الموت كـان هو أيضاً الإنسان المتكل على الله. هو القائل بحسب المزمور١٦ «احفظني يا الله، لأني عليك توكلتُ»، ثم يضيف قائلاً «جعلت الرب أمامي في كل حين، لأنه عن يميني فلا أتزعزع»، ثـم يستطرد قائلاً «لذلك فَرِحَ قلبي، وابتهجت روحي. جسدي أيضاً يسكن مطمئناً». ولهـذا فـإن المسيح هنا أمام مشهد الموت ما زالت ثقته في إلهه كاملة، فيستودع روحه الإنسانية بين يـدي الآب.

صحيح كان المسيح قد سبق وأنبأ عن ذلك اليوم العصيب أن ابن الإنسان سوف يُسلم إلـى أيدي الناس الخطاة (لو٩: ٤٤؛ ٢٤: ٧)، وهذا ما حـدث من لحظة القبض عليه في البستان حيـث ألقـوا عليـه الأيادي (مت٢٦: ٥٠؛ مر١٤: ٤٦؛ لـو٢٢: ٥٣)، لكنـه الآن، وقد أكمل العمل، يسلم روحـه **فـي يـدي الآب**. وصحيح أيضاً أنه عبرت على المسـيح فـي الجلجثـة عاصفة هوجاء، لم يرَ فيها وجـه الله الكـريم، عنـدما دخلت نفسه في أعماق الظلمة. لكنه بعد هدوء العاصفة وعبور الظلمة استعاد شركته ثانية مع الله أبيه كـي لا تتعطل بعد ذلك ولو إلى لحظة واحدة. وها هو يقـول «**يا أبتاه، في يديك أستودع روحي**».

> لنتعلم أنه إن كنا نتمنى أن تكون خاتمة حياتنا صلاة، فلتكن حياتنا نفسها حياة الصلاة، وإنَّ من أراد أن يموت موت الأبرار، وأن تكون آخرته كآخرتهم، عليه أولاً أن يحيا حياة الأبرار.

كان - تبارك اسمه - عجيباً ورائعـاً فـي كـل شيء: لم يُولد أحد كما ولد هو، ولم يَعِشْ أحـد كمـا عاش، ولم يَمُت أحد كما مات. إنه الفريد حقاً في كل شيء!!

هذا يجعلني أحدثك - أيها القارئ العزيز - عن كيف يجب أن تنتهـي الحيـاة. فلقـد تحدثنا الآن عن موت المسيح الصعب والرائع في آن معاً. كيف استطاع المسيح أن يجمـع النقيضين؟ وكيف استطاع أمام موت رهيب كهذا أن يتصرف هكذا، وعندما أتـت لحظـة الانطلاق أن يتحول عن الكل إلى الله مخاطباً إياه «يا أبتاه، في يديك أستودع روحي»؟

الإجابة: إن عادة المسيح في كل حياته كانت أن يسلم نفسه تماماً لأبيه. كان سيدنا المبارك،

كل حياته، في شركة مع أبيه، كانت كل حياته صلاة. وعندما دنت ساعة الموت كان الاتكال على الله والصلاة شيئين طبيعيين بالنسبة له.

ومن هذا نتعلم أنه إن كنا نتمنى أن تكون خاتمة حياتنا صلاة، فلتكن حياتنا نفسـها حيـاة الصلاة، وإن من أراد أن يموت موت الأبرار، وأن تكون آخرته كآخرتهم (عد٢٣: ١٠)، عليـه أولاً أن يحيا حياة الأبرار.

أتعرف كيف يموت البار؟ إنه في اللحظة التي تنطلق فيها روحه مـن عِقـال الجسـد، تذهب فوراً لتكون مع المسيح في الفردوس، أما الأشرار فعنهم يأتي قول الكتـاب «الأشـرار يرجعون إلى الهاوية، كل الأمم الناسين الله» (مز٩: ١٧). وما أبعد الفارق بين النهايتين، بـل ما أبعد الفارق أن يستودع المؤمن روحه – ساعة رقاده - بين يدي راعيه وفاديـه الحبيـب، وآخَر يقع في يدي الله الغاضب، إذ «مخيف هو الوقوع في يدي الله الحي».

* * * *

ولكن لنا أن نتعلم أيضاً من هذه العبارة: «يا أبتاه، في يديك أستودع روحي»، المزيد من الدروس الثمينة.

أولاً : أن المسيح مات موتاً حقيقياً

يدعي بعض المعلمين الكذبة والهراطقة بأن المسيح لم يمت فوق الصليب، بـل كـل مـا حدث له هو إغماءة فقط، وأنه لما وُضع في القبر الرطب استعاد وعيه من جديد وأفاق! وهـم بهذا يضربون عرض الحائط بآيات الكتاب الصريحة والعديدة التي تقول إنه مـات. «فـإنني سلمت إليكم في الأول ما قبلته أنا أيضا: أن المسيح **مات** من أجل خطايانـا حسـب الكتـب... لأنه إن كان الموتى لا يقومون، فلا يكون المسيح قد قام» (١كو١٥: ٣،١٦)، وأيضاً «لأنـه إن كنا نؤمن أن يسوع **مات** وقام، فكـذلك الراقـدون بيسـوع، سيُحضـرهم الله أيضـاً معـه» (١تس٤: ١٤). بل أيضاً كلمات المسيح نفسه عندما قال ليوحنا الحبيب في جزيرة بطمس «أنـا هو الأول والآخر، والحي. **وكنت ميتاً**، وها أنا حي إلى أبد الآبدين» (رؤ١: ١٧،١٨).

لقد كان الموت أحد أهم أغراض تجسد ابـن الله. لقـد «وُضِـعَ قليـلاً عـن الملائكـة (بالتجسد)... **من أجل ألم الموت**» (عب٢: ٩). وأيضاً «إذ قد تشارك الأولاد في اللحم والدم

اشترك هو أيضاً كذلك فيهما، لكي يبيد **بالموت** ذاك الذي له سـلطان المـوت، أي إبلـيس» (عب٢:١٤). فالمسيح إذاً أتى إلى العالم «لكي يذوق بنعمة الله **الموت** لأجـل كـل واحـد» (عب٢:٩).

وشهادة شهود العيان هي أقوى الأدلة في أية قضية، وتزداد طبعاً قيمة شهادتهم إذا كـانوا ذوي اختصاص في المسألة التي يؤدون شهادتهم فيها. وفي مسألة موت المسيح فإن الشـهود الرسميين هم الجنود الذين كان منوطاً بهم القيام بعملية الصلب. فيقول لنا إنجيل يوحنا «سـأل اليهود بيلاطس أن تُكسَر سيقانهم (المصلوبين) ويُرفعوا. فأتى العسكر وكسـروا سـاقي الأول والآخر المصلوب معه. وأما يسوع فلما جاءوا إليه لم يكسروا ساقيه، لأنهم رأوه قـد **مـات**» (يو١٩:٣١). وبالتأكيد ما كان أحد من الجنود يجرؤ على مخالفة التعليمات الصـريحة التـي عنده من الوالي بكسر ساقي كل من المصلوبين الثلاثة ما لم يكن هناك سبب هام لذلك، فما هو يا ترى هذا السبب؟ السبب هو أن المسيح كان قد مات. وهم بكل يقين كانوا مُـدربين جيـداً على عملهم هذا، وبالتالي فهم أقل الناس عرضة للخطأ في هذا الأمر.

ثم قد كان على رأس الجنود المكلفين هذا العمل قائد مئة: هذا القائد لما رأى العجائـب التـي صاحبت موت المسيح قال «حقاً كان هذا ابن الله» وأيضاً «بالحقيقة كان هذا الإنسان باراً». لاحـظ قول القائد: «**كان** هذا ابن الله»، و«**كان** هذا... باراً»، وليس ***إن*** هذا، مما يعني أنه كان قـد مـات. ويزيل البشير مرقس أي التباس في الأمر إذ يذكر صراحة أن قائد المئة الواقف مقابل المسيح «لمـا رأى... أنه صرخ هكذا وأسلم الروح، قال حقاً كان هذا الإنسان ابن الله» (مر١٥:٣٩).

بل إن البشير مرقس يستطرد قائلاً إن بيلاطس دعا قائد المئة وسأله «هل له زمـان قـد **مات**؟» (مر١٥:٤٤). فالأمر لم يمر هكذا دون تحر من الوالي بنفسـه عـن هـذه الحقيقـة العظيمة.

وهنا لنا في كلمة المسيح الأخيرة من فوق الصليب دليل في مسألة موت المسيح، إذ إن يسـوع صرخ بصوت عظيم قائلاً «يا أبتاه، في يديك أستودع روحي».

ثانياً: أن المسيح مات موتاً اختيارياً

فنحن هنا لا نسمع المسيح يقول بصوت متهدج: ها أنا أغيب عـن وعيـي وأخـور، ولا

حتى: ها أنا ذاهب في طريق الأرض كلها (يش٢٣:١٤؛ ١مل٢:٢)، بل إنه نادى بصوت عظيم وقال «يا أبتاه، في يديك أستودع روحي». وصراخه بصوت عظيم يدل على أن قواه الجسدية كانت حاضرة تماماً. ثم إنه في صفاءٍ ذهني يقتبس آية مناسبة من سفر المزامير، مما يدل على أن قواه الذهنية أيضاً كانت حاضرة. ثم إنه لا ينحني مُرغَماً أمام الموت، ملك الأهوال، بل يقول لأبيه «يا أبتاه، في يديك أستودع روحي». وبعد أن فاه بهذه العبارة أسند[*] رأسه وأسلم الروح.

> مَن فينا يذهب ولو إلى النوم وينام كما فعل المسيح عندما مات؟ مَن فينا يخلع ملابسه بسهولة ويسر بمطلق رغبته كما فعل هو عندما خلع جسده؟ من فينا يخرج من باب غرفته كما فعل سيدنا عندما خرج من هذا العالم وقت أن أراد؟

قال أحد الأفاضل: "مَن فينا يذهب ولو إلى النوم، وينام بإرادته كما فعل هو - تبارك اسمه - عندما مات؟ مَن فينا يخلع ملابسه بسهولة ويسر بمطلق رغبته كما فعل يسوع عندما خلع جسده؟ من فينا يخرج من باب غرفته عندما يريد كما فعل سيدنا عندما خرج من هذا العالم وقت أن أراد؟"

ثم ما أعظم هذا التعبير الذي تكرر في الأناجيل الأربعة جميعاً «أسلم الروح»[†]. فروحه لم يأخذها أحد منه عنوة، بل كما قال له المجد «أضعها أنا من ذاتي» (يو١٠:١٨). نعم لم تؤخذ روحه منه قهراً، بل بكامل إرادته واختياره

---

[*] يعلق "فاين" على عبارة «نكس رأسه» الواردة في يوحنا ١٩: ٣٠ بالقول إن الكلمة "نكس" تعني حرفياً "أسند". لقد وضع رأسه في وضع الراحة، ووجهه نحو السماء، بعد أن أنجز المهمة التي كلفه إياها الله. ثم أسلم الروح.

[†] بمقارنة الكلمة اليونانية كما وردت في الأناجيل الأربعة نجد أحد الأدلة على الوحي اللفظي لكلمة الله. ففي إنجيل متى الذي يتكلم عن المسيح بصفته الملك ترد كلمة تعني حرفياً أنه "صرف الروح". وفي كل من إنجيلي مرقس ولوقا، اللذين يكلماننا عن المسيح باعتباره الخادم وابن الإنسان، ترد كلمة يونانية أخرى بمعنى "أخرج الروح". أما في يوحنا، إنجيل ابن الله، فالكلمة المستخدمة هناك تعني حرفياً "أسلم الروح". إنه صاحب السلطان على روحه (يو١٠:١٨)، وهو في هذا يقف في مباينة مع كل البشر (جا٨: ٨).

قِبِلَ الموت. وبلغة إشعياء ١٢:٥٣ «سكب للموت نفسه».

ثالثاً: أن المسيح مات مسلِّماً الروح في يدي الآب

نعرف من سرد الأناجيل لأحداث الصلب أن أحداً من التلاميذ لم يكن إلى جوار المسيح عند الصليب، إذ تركه الجميع وهربوا (مر١٤: ٥٠)، بل إن النساء الوفيات أيضاً لم يكن في لحظة موته على مقربة منه، بل كن «ينظرن من بعيد» (مت٢٧: ٥٥؛ مر١٥: ٤٠؛ لو٢٣: ٤٩). لكن الآب كان قريباً منه في تلك اللحظات، فقال له: « يا أبتاه، في يديك أستودع روحي».

إنه لم يسلمها في أيدي الملائكة بل في يدي أبيه. ومع أنه - تبارك اسمه - كان موضوع خدمة الملائكة في مسيرته هنا فوق الأرض (مز٩١: ١١،١٢)، وهو كالإنسان الكامل تمتع بخدمة أيديهم في حياته، لكنه الآن عند موته لا يسلم روحه في أيديهم بل في يدي الآب.

يظن قوم أن المسيح ذهب إلى الجحيم من قِبَل الصليب. لكن تلك العبارة السابعة من فوق الصليب، آخر عباراته قبيل موته تمنعنا من الوقوع في هذا الخطأ. لقد قال لأبيه «يا أبتاه، في يديك أستودع روحي»، وقبلها كان قد قال للص التائب «الحق أقول لك إنك اليوم تكون معي في الفردوس». هذان النطقان لسيدنا، وهو فوق الصليب، يُعرفاننا تماماً أين انطلقت روحه عندما دخل جسده - له كل المجد - إلى القبر. وبدخوله إلى القبر لم ينزل فقط إلى الأرض، (فهو كان قد نزل من السماء إلى الأرض بالتجسد) لكنه بالموت نزل إلى أقسام الأرض السفلى (أف٤:٩). لكنه في الوقت نفسه استودع روحه بين يدي الآب، وانطلق إلى الفردوس.

آخــر الأقــوال مــا أروعَهــا — فــي يــديكَ روحــي أســتودِعُها
فــي يــدي الآبِ قــد أودعتَهــا — باختيــارٍ أنــتَ لــمْ تمنعَهــا
نفسَــكَ للمــوتِ قــد أسـلمتَها — لــكَ ســلطانٌ تضــعها أو تــدعها
لــم تُســلِمُها إليــهِ عُنْــوةً — قلتَ قبلاً "أنا مـن ذاتـي أضـعها"
قصة الصلبِ سَمَتْ جداً كما — كلمــاتُ الصــلبِ مــا أروعهــا

* * * *

والآن بعد أن ركزنا الحديث على الموت الذي ماته المسيح، أريد الآن أن ألقي نظرة على

هذه العبارة ذاتها.

هذه العبارة اقتبسها الرب - له المجد - من المزمور الحادي والثلاثين. ومن هذا نتعلم المكان البارز والهام للكتاب المقدس في حياة المسيح. إنه هو القائل «شريعتك في وسط أحشائي» (مز٤٠:٨). ولهذا فإنه لما كان على الصليب وَجه عباراتٍ ثلاثاً للآب كانت كلها مُستوحَاة من الكتاب المقدس: العبارة الأولى «يا أبتاه، اغفر لهم» كانت تتميماً للنبوة الواردة في آخر آية في إشعياء ٥٣ «شفع في المذنبين»، والعبارة الرابعة «إلهي، إلهي، لماذا تركتني؟» كانت اقتباساً حرفياً من أول آية في المزمور٢٢، والآن هذه العبارة السابعة والأخيرة - موضوع تأملنا - كانت أيضاً اقتباساً من مزمور٣١:٥.

نحن لا نستودع أشياءنا الثمينة لدى شخص مجهول، ولا لشخص ميت لا يقدر أن يحافظ عليها. فإن كنا لا نفعل ذلك بأمور الدنيا الفانية فبالأولى كثيراً بالنسبة لأرواحنا الخالدة. فلنتعلم من المسيح هذا الدرس الغالي

لقد كان يلذ للمسيح الاقتباس من الكتاب. ومع أنه لم تكن تعوزه الكلمات التي بوسعه أن يصوغها صياغة إلهية، فكما شهد له أحباؤه «أنت أبرع جمالاً من بني البشر، انسكبت النعمة على شفتيك» (مز٤٥:٢)، وكما شهد عنه أعداؤه «لم يتكلم قطّ إنسان هكذا مثل هذا الإنسان» (يو٧:٤٦). لكنه - تبارك اسمه - فضل ألا يصوغ عبارة جديدة، بل أن يقتبس من الوحي ذاته. لقد كان هو نفسه الكلمة، الكلمة الذي كان في البدء عند الله، والكلمة الذي صار جسداً وحل بيننا (يو١:١،٢،١٤). لكنه أيضاً كان يعيش بالكلمة المكتوبة، وكان شعاره «ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، بل بكل كلمة تخرج من فم الله» (مت٤:٤)، وأيضاً «أن أفعل مشيئتك يا إلهي سررت، وشريعتك في وسط أحشائي» (مز٤٠:٨). لقد بدأ خدمته في البرية باقتباساتٍ ثلاث من كلمة الله وجهها إلى الشيطان، وختم حياته من فوق الصليب بصلواتٍ ثلاث مستوحاة من هذه الكلمة عينها، وجهها إلى الله!

لكن من المهم أن نلاحظ كيف اقتبس المسيح من المزمور. فلقد أضاف شيئاً إلى الآية في أولها، كما أغفل ذكر عبارة وردت في آخرها. فهي في المزمور «في يدك أستودع روحي، فديتني

يا رب إله الحق». فأضاف المسيح كلمة «يا أبتاه» في أولها. وهي كلمة لم يكـن ممكنـاً لقديسـي العهد القديم أن يقولوها. أما نحن فنقولها لأن سيدنا علمنا أن نبدأ صـلاتنا بـالقول «أبانـا»، وأمـا المسيح فيقولها ولكن بمعنى أعمق وأعظم*. فنحن أخذنا روح التبني الذي به نصرخ «يا أبـا، الآب» (رو٨: ١٥)، وأما المسيح فهو الابن الوحيد الأزلي. وحتى عندما صار إنساناً فإنه بِكرٌ بـين إخـوة كثيرين. لذلك قال للمجدلية «اذهبي إلى إخوتي وقولي لهم إني أصعد إلى أبي وأبيكم» (يـو٢٠:١٧)، ولم يقل إلى أبينا.

وأما العبارة الأخيرة في أقوال كاتب المزمور فلم يكن مناسباً أن يقولها المسيح، حتى وإن قالها داود: فهو لم يُفْدَ، بل بالحري قدم نفسه باعتباره الفادي الوحيد، لذلك لـم يقـل المسـيح «فديتني يا رب»، وأما نحن في العهد الجديد فكم يلذ لنا، نحن المفديين، أن نقولها. بل هي في أفواهنا أشهى وأحلى مما تذوقه المرنم في العهد القديم وهو ينطق بها أوّل مرة.

* * * *

«**يا أبتاه، في يديك أستودع روحي**». والإنسان عادة عند الاحتضار يستودع أغلى مـا عنده لأعز من لديه. وها هو المسيح يستودع روحه الإنسانية لأبيه. إن روح الإنسـان هـي بكل يقين أغلى وأهم ما يمتلك الإنسان. إنها أعظم أجزاء كيان الإنسان الثلاثي: الروح والنفس والجسد (١تس٥:٢٣). والجسد عند الموت يرجع إلى التراب كما كان، وأما الـروح (ومعهـا النفس) فترجع إلى الله الذي أعطاها.

ونحن لا نستودع أشياءنا الثمينة البتة لدى شخص مجهول لا نعرفه، ولا لشخص ميت لا يقدر أن يحافظ عليها. فإن كنا لا نفعل ذلك بأمور الدنيا الفانية فبالأولى كثيراً بالنسبة لأرواحنا الخالدة. لذلك فإننا هنا نتعلم من المسيح درساً غالياً وعظيماً عندما قال لأبيه قبل أن يموت «يا أبتاه، في يديك أستودع روحي». ولقد وعى ذلك الأمر شهيد المسيحية الأول استفانوس، وتعلم من صليب سيده أثمن الدروس. فكما صلى المسيح لأجل صالبيه قائلاً «يا أبتاه، اغفر لهـم»، فإنه هو أيضاً قال عن راجميه «يا رب، لا تُقِمْ لهم هذه الخطية». وكما قال المسيح لأبيه «يـا

* لقد راعت الترجمة التفسيرية هذا الأمر عندما ترجمت العبارات الثلاث المتشابهة بحسب ترجمتنا المعتادة (فانديك). ففي مرقس ١٤: ٣٦ ترد عبارة «يا أبا، الآب» التي نطق بها المسيح هكذا: "يا أبا، أبي"، وأما في رومية ٨: ١٥، وفي غلاطية ٤: ٦ حيث ترد هذه العبارة عنا، فقد وردت في هذه الترجمة "يا أبا، أبانا".

أبتاه، في يديك أستودع روحي»، هكذا هو أيضاً قال «أيها الرب يسوع، اقبل روحي».

*   *   *   *

دعني في النهاية أختم تأملاتي في هذه الأقوال الثمينة بهـذه النصـيحة الغاليـة للقـارئ العزيز: ليتك لا تنتظر ساعة الوفاة لكي تنطق بهذه العبارة العظيمة، بل لتكن هذه صلاتك فـي كل صباح، بل ليكن هذا شعارك في كل حين. قل لله: "يا أبانا فـي يـديك اسـتودع روحـي ونفسي وجسدي. أنا أحتاج إليك في كل لحظة من لحظات يومي، فتفضل يا سـيدي وامسـك بدفة حياتي، وكن أنت قابض قرعتي، ولتكن في يديك آجالي وأوقاتي".

ونحن إذ نقول للرب «في يديك أستودع روحي» فإننا على التو نتذكر الكُلفة الكبيرة التـي تكلفها، فنقول له «فديتني يا رب إله الحق»، ولأنه فدانا فهو يستحق كل كياننـا «كـي يعـيش الأحياء في ما بعد لا لأنفسهم، بل للذي مات لأجلهم وقام» (٢كـو١٥:٥)، «لأننـا إن عشـنا فللرب نعيش، وإن متنا فللرب نموت، فإن عشنا وإن متنا فللرب نحن» (رو٨:١٤).

دعوني إلى الجلجثة

دَعـوني إلـى الجلجثـهْ أقتـربْ
لِأعــرفَ أحــزانَ رب صُــلِبْ

وأُصـغي لأسـمعَ أقوالَـهُ
وأدنــو لأنظُــرَهُ عَــنْ كَثَــبْ

فـإذ بـي يَشُـق علـي السـمَعْ
وقلبـيْ لمنظـرِهِ يضّـطَربْ

فصـوتُهُ يعلـو بعمـقِ الألـمْ
ليسـألَ صَـفْحاً لأبشـعِ ذَنْـبْ

يـذوبُ لحـالِهـه رِقّـةً
فحَالُهـا عـنْ بَالِـهِ لـم يَغِـبْ

ويمـنحُ مجـداً للـصِ يتـوبْ
ويَعـرضُ عفـواً لِمَـنْ لـم يَتُـبْ

أيا ربّـي صـرختُك المُـرّةُ
لها قلبي ذابَ ودمعي انْسكَبْ

فهـا اللهُ فـي غضـبٍ فاتَـكَ
وعن وجهـكَ وجْهَـهُ قـدْ حَجَـبْ

عَطِشـتَ ولكـنْ صـرختَ لكـي
تُـتَمِمَ كـل الـذي قـد كُتِـبْ

وإذْ تَــم أعلنــتَ «قَــدْ أُكمِــلَ» فكــل حســابي عليــكَ حُسِــبْ
وهكـ ـذا روحُـ ـك أودعتَهـ ـا أبــاكَ بكــل خضــوعٍ وحُــبْ

* * *

أيــا رب طيبــي قليــلٌ عليــكَ كــذا نــارديني إذا مــا سُــكِبْ
ولا يكفـ ـي مـ ـالٌ ولا فضـ ـةٌ ولو كنـتُ أملـكُ أغلـى الـذهبْ
فيـا ليـتَ دمعـي علـى قـدميكَ يســيلُ فيكشــفَ عرفــانَ قلــبْ
ويغسِــلهُما مِــنْ جــروحٍ دَمَــتْ بفعـل الحديـدِ الـذي قـد ثَقَـبْ
وليتنــي أقضــي حيــاتي هُنــا أُقبلهُمـ ـا بامتنـ ـانٍ وحُـ ـبْ

فيبي فارس